نور الدين درويش

وديس

رواية

دار الأوطان

كلّ الحقوق
محفوظة
للمؤلف

المؤلف: نور الدين درويش

نوع الكتاب: رواية

العنوان: وميس

القياس:22/14

عدد الصفحات:192

الطبعة: الأولى 2020

دار الأوطان للثقافة والإبداع / الجزائر

المحمول: 770972310 (213+)

البريد الالكتروني: yahiaoui. 2011@live. fr

الإهداء

إليهما معا

وقد تناوبتا على رعايتي

و تهيئتي لليوم الكبير

تذكر

وقف على صخرة ملساء قبالة المستشفى الكبير في أعالي باب القنطرة وتنفس بقوة، تأكد بعد سفر شاق طويل أنّه وارث هذه الأرض، وأنّه قد ورثها قبل انغماسه في البوح.. وأنّه ورث عن هذه الصخرة الشامخة كبرياءه وشموخه والتحدّي، كان عليه قبل قطع المسافات أن يتوضّأ مرتين وأن يسافر في الزّمن ليعود إلى حضنها منتصرا.. بذوره في كلّ روضة من رياضها الشاسعة، كان يدرك أنّهم سيحسدونه عليها، وعلى حبّه الكبير وسيحسدونها هي أيضا، لقد تأكّد من خلال رؤيا والده أنّه سيبلغ محطّته الأخيرة، هي فقط من سيكون سنده بعد الله، وهي فقط من ستزوّده بالقوة والصبر لدفع البلاء المسلّط عليه من قبل طالبيها المتنفذين في المؤسسات، وهي الوحيدة التي سيستعين بها عليها، لا سبيل إلى مقاومة سحرها إلاّ بالحكمة والبيان، هكذا قال أستاذه المتنبّي.

استدار نحو الشّمس، مال ناحية اليمين قليلا وصلّى ركعتين

بعد استراحة خفيفة وقف من جديد وقفة متهيئ لكلّ طارئ..

نور الدين درويش

1

أمس، وهم يحتفلون بالذكرى العاشرة لنجاتي من الموت، المصادف لعيدها الأربعين سألني نسيم:

ألا تدلّنا على حرز المدينة ومخبأ الرجل الضخم؟

كانت قاعة الندوات بالمركز الثقافي غاصة بالجمهور.. الصّفوف الأمامية حُجزت للوالي ومرافقيه من أعضاء المكتب التنفيذي الولائي، وكذا لقدماء المجاهدين وأصحاب المال، ثم يليهم كبار الفنانين وأصحاب المعارف، أمّا عامّة النّاس فلهم الأماكن الخلفية المتبقية.

ما لفت انتباهي في ذلك اليوم، في ذلك الشهر من سنة 2002 م، هو حضور شخصين معروفين في المدينة، أحدهما كان عميلا أيام الاستعمار الفرنسي يُدعى كريمو، والثاني قصير القامة أعرج يدعى كلود، وهو من إحدى العائلات اليهودية التي لم تغادر، وظلّت تعمل وتكيد في صمت بعيدا عن أعين الناس..

نسيم شاب جريء، أسس رفقة مجموعة من محبي الأدب جمعية ثقافية فتية، أطلقوا عليها اسم" أبناء الصخرة عشاق الأدب" أنتخبَ رئيسا بالإجماع.. نسيم شاب أصيل ونبيل، لكن تغلب عليه الحماسة، كأنّه يسابق الزمن، يريد أن يعرف كلّ شيء عن كلّ شيء في ظرف وجيز، وهذا ما يدفعه أحيانا إلى طرح أسئلة محرجة، وأحيانا خطيرة غاية الخطورة.

حتما ستثير إجابتي بلبلة في القاعة، ستستفزّ المسؤولين وبعض الجالسين في الصفوف الأمامية، وهذا سيحرج نسيم، وربما سيؤثر على مستقبل جمعيته، لذا ادعيت أنّ ألما حادا في بطني يُحتِّم عليَّ مغادرة القاعة بسرعة، ووعدته

بالإجابة على السؤال والتطرق للموضوع في مناسبة أخرى.

بعد عامين، وهم يحتفلون بالذكرى الثانية والأربعين لعودتها من المنفى، طلب منّي نسيم أن أصعد إلى المنصة وأن أجلس إلى جانبه وقد سبقني إلى ذلك كلّ من الوالي ومدير الثقافة.

أعطيت الكلمة في البداية لإمام المدينة وخطيبها ثم لأحد الأعيان، كلٌّ منهما أدلى بدلوه، فصالا وجالا وأثنيا على الجمعية وعلى نسيم مشيرين إليَّ ببعض الكلمات العابرة بصفتي ملهم هؤلاء الشباب المفعمين بحب الوطن والأدب، ثم لمّا جاء دور الوالي لإلقاء الكلمة الرسمية اعتذر وأشار بيده إلى مدير الثقافة الذي ناب عنه، فرحّب بالضيوف، وتمنّى لمن جاؤوا من خارج المدينة إقامة طيبة.

لاحظت كما لاحظ كلّ من في القاعة أنّ سيادة المدير المحترم لم يشر في كلمته إطلاقا إليَّ. لذا قررت أن أغادر القاعة فورا، فقمت وقلت لـ نسيم وهو يتسلم الميكروفون من مدير الثقافة:

ـ أعتذر لك يا نسيم.. أنا مضطر لمغادرة القاعة الآن، تذكرت موعدا لا ينبغي أن أتأخر عنه..

هذه الجملة غير المتوقعة، هزّت القاعة وأربكت المنظمين، فوجئت وأنا أخطو خطواتي الأولى مغادرا تلك المنصة بعدد هائل من الجمهور، كلّهم وقفوا مبدين حماسهم لمصافحتي، ممّا جعل الوالي يأخذ الميكروفون ويقول:

ـ ما كان عليك أن تتركنا بهذه السرعة يا أستاذ، لقد صار اسمك يتردّد كثيرا في المدينة، نحن أيضا نريد أن نستمع إليك..

فتدخّل المدير المحترم وقد شعر بالحرج: نعدكم أيّها الحضور الكريم بلقاء قريب مع الأستاذ..

أخيرا عادت البسمة إلى شفتيّ نسيم، وأشرق وجهه بعد أن غَشِيه الظلام، بدا عليه الارتياح وهو يسمع هذا الكلام من الوالي ومن مدير الثقافة، هذا ما شجعه على أن يقول بصوت مسموع:

أيعقل يا عمُّ هلال.. أيعقل أن يغيب العريس في يوم عرسه.. لا يحقّ لك أن تتركنا في هذه اللّحظات وتذهب.. إنّ جلّ من في القاعة إنما جاؤوا من أجلك، جاؤوا ليستمعوا إليك، ليسألوك عن الحرز ومخبأ الرجل الضخم، نعم إنّنا نعتقد أنّ الوقت قد حان لتكشف لنا بعض ما تعرف.. لقد مات من مات وهرم من هرم، ولم يصمد من النّاجين إلاّ أنت، فهل ستبخل علينا بشهادتك ؟

أرجوك ابق معنا ولو ساعة من الزمن، هذا يوم تكريمك يا أستاذ..

سحبت كفّي بلطف من يد أحد المصافحين ووضعتها على كتف نسيم مشيرا إليه بمرافقتي إلى خارج الباب وأدرت رأسي بسرعة متجنّبا مصافحة ذلك الرجل قصير القامة المسمّى كلود، ثم رفعت يدي للجمهور مودعا، واتجهت بخطواتي نحو الباب وقد رافقني نسيم، فقلت له:

ما يدوم غير الصّح يا نسيم، أمّا الحرز فقد استحال كما يروي بعضهم إلى طائر أسود لا هو بالغراب ولا هو بالنّسر، وصار عند بعضهم ظلا يتخفّى وراء كلّ مسؤول، أمّا أنا فأراه في عيون المارة، وأمّا المخبأ يا نسيم فعلى بعد أمتار فقط من وادي الرمال، قبالة محطة المسافرين.. اعلم يا ابني

أنّ للرجل الضخم أتباعا في كلّ مكان، إنهّم يتربصون بنا، يتابعون تحركاتنا خطوة خطوة، وما علينا إلاّ أن نتشبث بالأرض أكثر، وأن تظلّ أعناقنا مشرئبة للسماء.. إنّني أشكركم للمرّة الألف على هذا التكريم، لكنّ التكريم الحقيقي بالنسبة لي هو أن تقطعوا دابر أتباع الرجل الضخم.. إلى اللقاء.

2

ستة كنّا، وتهمتنا وميس..

حذرنا هذا الأستاذ أكثر من مرة، ووبخنا ذاك مرّات، وعاقبنا الآخر مرّات ومرّات.. كلّ ذلك بسبب تهوّرنا وطيشنا، وبسبب الفوضى التي نحدثها في القسم.

ما كان يشفع لنا عند الأساتذة، وعند الإدارة أيضا هو تفوّقنا في الدراسة، وأيضا المراتب الجيّدة التي تتحصل عليها متوسطتنا في الولاية، كانت متوسطتنا دائما تفوز في المسابقات التربوية، وهذا بفضل مجموعتنا المتكونة من6+1.

هكذا كنّا، نتعلم ونلعب في الوقت نفسه، نراجع دروسنا جيدا في المنزل، نحفظ ما يطلب منّا حفظه عن ظهر قلب، نتابع شروح الأساتذة في القسم باهتمام كبير، لكنّنا بالموازاة لا نكف عن التعليقات وسرد الحكايات، وإصدار النكت.

كان لنا مع كلّ أستاذ قصة، بل قصص ونوادر، وكانت لنا على كلّ واحد منهم ملاحظات.. أستاذ الرياضيات مثلا، كنّا نسميه الرياضي. من الرياضة لا من الرياضيات. لما له من عضلات مفتولة وصدر منتفخ على الدوام.

ما يدهشنا فيه، هو أنه دائما يفتخر بعضلاته، ولا يأتي على ذكر ما في رأسه، وهو القائل والمردّد دوما (ما أجنيه في دورة رياضية وطنية واحدة من مكافآت مالية يفوق محصول ثلاث سنوات من التدريس.

كلّما ارتفع الضجيج في القسم، أخذ الأستاذ الرياضي الطبشور وكتب على السبورة: (6+أ = ج–5)

مع مرور الوقت أصبحت هذه المعادلة محلّ حديث التلاميذ داخل المتوسطة وخارجها، بل صارت الألسنة تردّدها وتتندّر بها في المقاهي.
سألناه أكثر من مرة، وترجّيناه أكثر من مرة، لكنّه رفض أن يكشف لنا سرّ هذه المعادلة التي صار يصفعنا بها في كلّ حين، كان دائما يردّ علينا بجواب جاهز (تكبروا يا أولاد وتفّهموا).
الأجيال القادمة ستقرأ عنكم، ستدخلون التاريخ حتما، سواء من باب العلم أم من نوافذ الطيش والجنون)، وربّما من أبواب البطولة. هذه الجملة كثيرا ما ردّدها أستاذ مادة التاريخ والجغرافية، ونحن ندعوه (الدّيناصور) لأنّه طويل القامة عريض المنكبين، ولأنّ أحاديثه كلّها تدور حول الأمكنة المطموسة والأزمنة الغابرة وحول الشخصيات المنقرضة.
أمّا حكاياتنا مع المتنبي ـ أستاذ اللغة العربية ـ فلا تنتهي، دائما يسبقنا إلى القسم، ما إن تطأ رجل آخرنا بلاط القسم حتى يبدأ الدرس. الوقت عنده كالسّيف، إن لم تقطعه قطعك، والمتخلّف عن حصته كمرتكب المعصية الكبرى، لا يُقبل عذره ولا يغفر ذنبه إلاّ بتوبة نصوح، أمّا الذي يأتي وينسى قلمه أو كرّاسه أو كتابه فهو كالجثة الهامدة لا روح فيها، أو كالجندي الذي يخرج إلى الحرب بغير سلاح.
هذه المرة، وعلى غير العادة، دخلنا جميعا، وجلسنا جميعا، لكنّ الدّرس لم ينطلق، ظلّ المتنبّي واقفا في مكانه أمام السبورة. لم يتفقد كعادته الكراسي والطاولات، ليتأكّد من حضورنا جميعا، ظلّت عيناه سابحتين في اللاشيء. بعد دقيقتين من الصمت المحيّر، أخذ مسطرته المستطيلة، وراح يشير بها

إلى التاريخ المكتوب في الجهة اليمنى من السبورة باللّون الأحمر، واللّون الأحمر بالنسبة إلينا علامة أخرى على أن الأمر ليس عاديا، فمن عادة الأستاذ المتنبّي أن يكتب التاريخ بلونين مختلفين. إمّا بالأبيض والأخضر، أو بالأصفر والأزرق، أمّا باللّون الأحمر وهو لون الدم، فهذا يحدث لأوّل مرة.

للمتنبّي قدرة فائقة على قراءة ما في نفوسنا، من عادته أن يركّز النّظر في العيون، ومن خلالها يفهم كلّ شيء، وقد ركز النّظر في عيوننا هذه المرة أيضا، وتفطّن لآيات الاندهاش التي ارتسمت في ملامحنا فقال:

ـ لقد تعمدتُ اللّون الأحمر، لأميّز هذا اليوم عن غيره من الأيّام، وأرجو أن تنقشوا هذا التّاريخ في أذهانكم جيدا.

سأله كمال: أيّ التاريخين جدير بالتسجيل يا أستاذ، الميلادي أم الهجري؟

ضحكنا جميعا للسؤال، فقاطعنا المتنبي بردّه: سجّلوهما معا، فهما عنوانان ليوم واحد، وكتاب واحد.

تدخّل كمال مجدّدا دون أن يستأذن: أيّ كتاب تقصد؟ وفيما يختلف هذا اليوم عن سابقيه ولاحقيه؟

بلهجة الرجل المتخوّف ممّا سيحدث ردّ المتنبي:

"اليوم بدأ العقد في الانفراط، وبدأ الرباط المقدس في التمزّق.. مؤشرات الفرقة بدأت، وبوادر الشرخ اتضحت، لم يبق بيننا وبين الفتنة الكبرى سوى خطوة مجنونة، والفتنة أشدّ من القتل..

عناوين الجرائد هذا الصباح تندر بالكارثة.. لقد جاء فيها أنّ قوات الأمن

اقتحمت أسوار أحد المراكز الجامعية بمنطقة القبائل، ومنعت بالقوة أستاذا من أساتذة المركز من إلقاء محاضرة حول الشعر القبائلي القديم.. وعلى إثر هذا المنع نظم الطلبة مسيرة انطلقت من الجامعة باتجاه مقر الولاية، نددوا فيها بهذا التصرف المنافي لحرية التعبير.. وقد انضمت إلى المسيرة حشود من النّاس خاصة الشباب، وانضم إليهم آخرون قاموا بنزع الراية الوطنية في مدخل المركز، فما كان على قوات الأمن إلاّ أن فرّقتهم بإطلاق الغازات المسيلة للدموع وأيضا بالرصاص المطاطي وقامت باعتقال المئات منهم..

كان المتنبّي في غاية التأثّر والذهول وهو يقصّ علينا ما أوردته الجرائد، في هذه اللّحظة تدخّل عصام وقال بصوت مسموع: ليتني كنت هناك

ردّ عليه "كمال" على الفور: بطبعك يا صديقي تحبّ الفوضى وتميل إلى العنف

قاطعه المتنبي و واصل يقول:

ستندلع الحرب ولو بعد حين، وإنّكم ستختلفون، كما اختلفنا نحن قبيل الثورة، أمّا نحن فقد تحمّلت جماعة منّا عبء المواجهة والكفاح، ووضعت على عاتقها مسؤولية تحرير البلاد من الاستعمار متجاوزة بذلك كلّ الحسابات الحزبية والفكرية، لقد انصهر الجميع في جبهة التحرير فكان كلّ الثّوار على قلب رجل واحد في مواجهة العدو، فهل منكم من سيضعون على عاتقهم مسؤولية تحرير البلد من بقايا الاستعمار، هذه ليست مهمة سهلة، تطهير البلد يتطلّب الوقت والإخلاص و التضحيات الجسام.. نعم ستختلفون يا أبنائي، فمنكم من يجنّ قبل بلوغ الهدف فيلجأ إلى ركنه

الآمن في صالة الانتظار، ومنكم من يفرّ بجلده ثم يعود بعد غياب ويأخذ بالثّأر، ومنكم من ستخونه قدماه ويخذله الحظ فيسقط في شرك الأشرار، ومنكم من يجبن ويخون ويكون وسامه الذل والعار، ومنكم من سيبايع الموجة الهوجاء ويغامر صوب النّار..

ثم توقّف عن الكلام، اقترب منّي قليلا، نظر إليّ وقال: ومنكم من يقوم بعد سقوط وسقوط غير مبال بجراحه ويواصل المشوار

سأله كمال: وأين تكون نهاية المشوار.. فلسطين؟ متى تتحرّر القدس؟

قال المتنبّي: حين يتحرّر هذا البلد، تتحرّر القدس، ولن يتحرّر البلد إلاّ إذا غيّرنا ما بأنفسنا.

أراد أن يسأله مرّة أخرى، فمنعه المتنبي بحركة من يده، فسكت كمال، وسكتنا.

بعد لحظات استدار المتنبي إلى الخلف ومشى نحو مكتبه، أخذ المسطرة وأشار من جديد إلى التاريخ، ثم فجأة ألقاها بغضب على المكتب وانفجر بالضحك، وظلّ يضحك بطريقة هستيرية ما عاهدناها عليه من قبل.

الأستاذ يضحك أم يبكي؟ (سألني كمال وهو في حيرة كبيرة)

فقلت: يبدو أنه جمع بينهما

. للمرة الأولى أرى الدموع في عينيه

. نعم. وأنا أيضا

. ربما جنّ المتنبي

فقلت له بصوت بلغ أذني وميس: كاد المعلم أن يكون رسولا

أدارت وميس رأسها وابتسمت بسمة خفيفة، ثم ألقت بيدها في حركة سريعة معتادة خصلات شعرها الحريري إلى الوراء وسألتني:

. هل ستبايع الموجة الهوجاء يا هلال وستغامر صوب النّار؟

دون تردد أو تفكير قلت:

. بل سأقوم بعد سقوط وسقوط وأواصل المشوار.

على إثر جوابي تدخّل عليّ الذي يتقاسم الطاولة الأخيرة في الصف الثاني مع عصام وسأل وميس: لماذا تريدين معرفة ذلك يا وميس؟

ردّت عليه ببرود تام: فضول ليس إلاّ، طبعا إذا لم يكن لديك ولديه مانع..

أراد أن يستدرجها أكثر إلى فخّه، فقال وهو يبتسم بسمة فيها خبث:

ترغبين في معرفة مصير هلال فقط، أم مصيرنا جميعا؟

. أوه لا أريد أن أعرف شيئا.. يرضيك هذا؟

فردّ عليها وقد ارتسمت في وجهه ملامح الماكر المنتصر:

اعلمي أيتها الأميرة الحسناء، أن هذا الثنائي الخطير، أقصد أنا وهلال، لا يمكن بحال من الأحوال أن نجبن أو نخون أو نقبع ساكتين في صالة الانتظار، واعلمي أنّني سأكون له بالمرصاد، ولن أتركه يغامر صوب النّار، سآخذه معي إلى المريخ، ولن نعود من هناك إلاّ بعد أن تسحب الأمواج أذيالها وتلوح في الأفق سفينة النجاة.

أراد عليّ أن يستفزّها، لكنّ سهمه أخطأها وأصابني في الصميم، فقلت له معاتبا:

عفوا صديقي عليّ، لقد ظلمتني مرتين، الأولى عندما تحدّثت نيابة عنّي

دون إذن منّي، والثانية حين ربطت مصيرك بمصيري واتخذت الهروب وسيلة للخلاص.

ثم توجّهت بكلامي إلى وميس موضحا أكثر:

. إياك أن تصدّقيه، فليس مثلي أنا من يفرّ بجلده خوفا على نفسه، تاركا خلفه أهله وأحبّاءه تدوسهم الأقدام، وتحرقهم النيران.

امتعض عليّ من جوابي، وردّ على الفور محاولا إقامة الحجة:

أنت مخطئ يا صديقي البطل، الانتقال من مكان لآخر لمواصلة النضال عين العقل.. أرض الله واسعة، والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه انتقل من مكة التي يحبّها إلى المدينة خوفا على دينه وعلى نفسه من بطش كفّار قريش، ثم عاد بعد سنين منتصرا. إنَّ أحسنَ ما نواجه به الأمواج الهوجاء يا هلال هو أن نغوص في الماء بأجسادنا حتّى تمرّ، لا أن نعترض طريقها وننفخ صدورنا في وجهها، تلك حماقة يا صديقي وليست بطولة.. الشجاعة في غير موضعها جنون.. جنون

كانت الجماعة تصغي إلينا، وحين اشتدّ النّقاش تدخّل عصام موجّها كلامه إليّ:

أعتقد يا هلال أن الحق جانبك هذه المرّة، فعليّ محق في قوله، أظنّ، بل أجزم أنّك لم تفهمه، فهو لا يريد أن يقلّل من شأنك، وأنا شخصيا، نعم أنا شخصيا أشاطره الرأي.. لا أرى مانعا أبدا في أن يهرب الواحد منّا إذا رأى في هروبه خيرا له ولقضيته.. الهارب في مثل هذه الحالة ليس جبانا، إنما الجبان من يتخلّى عن قضيته مقابل بقائه حيّا.. الجبان أيضا هو من

يقبع في داره مثل النساء وينتظر أن يقرّر مصيره غيره.

في الوقت الذي كان فيه عصام يشرح وجهة نظره، كان رضا يحرّك رأسه نحو الأعلى راسما بذلك صورة رجل لم يتبيّن طريقه بعد، بينما قال قدور الذي يقاسمه الطاولة الأخيرة في الصفّ الأوّل:

أمّا قدور، هذا العبد الضعيف السخيف فسيموت هنا، سيموت واقفا مثل علي لابوانت.. وسأكون بإذن الله حيث يكون هلال، أنا باق هنا يا هلال تستطيع أن تعوّل عليَّ.. هذا وعد.

أراد قدور أن يسترسل في الكلام، فقاطعه كمال الجالس إلى جانبي:

اسمح لي يا قدور، أعتقد أن الصواب مع عليّ، اسمحوا لي يا جماعة أن أعبّر بمنتهى الصراحة والوضوح عن ارتياحي العميق لفكرة عليّ، إنها فكرة رائعة، وإنّني أبدي لكم رغبتي من الآن في حجز تذكرة إلى المريخ؛ أو إلى أيّ مكان آخر.

فقلت وأنا غيرُ مقتنع تماما بما قاله كمال:

من يريد الذهاب فليذهب، أمّا أنا فسأموت هنا، ولو قُطِّعتُ إربا إربا، ويكفي أن أجد قدور إلى جانبي.. أنا لا أدّعي البطولة يا جماعة، ولا أطعن في اختياراتكم، لكنّني أصرّ على البقاء هنا.. إنّ هذا القلب الذي أحمله بين جوانحي لا يطيق الابتعاد عن أهله وأحبّته.

فهمت وميس بحسّها الأنثوي ما تخزّنه الكلمات من شحنات عاطفية، فاحمرّ وجهها وأدارت رأسها بسرعة، مانحة بذلك الفرصة لعليّ لمواصلة مَكره، وقد تأكّد من وقوعها في فخّه:

الآن ونزولا عند رغبة المحبّين، قرّرت أنا ملك المريخ أن أضع صاروخا مجهّزا كما ينبغي تحت تصرف صديقي المحبّ البطل هلال.. سيكون الصاروخ في انتظارك كلّ نهاية أسبوع يا صديقي.. وبإمكانك أن تزور أهلك ومن تحب..

قاطعته مبديا رغبتي في إنهاء الحديث، أراد أن يواصل فقاطعته مرة أخرى مشيرا بعيني إلى المتنبّي الذي يتجه نحونا: أس أس.

كان المتنبي أثناء حديثنا منشغلا بتنظيف زجاج نظّاراته الطبيّة بمنديله البنّي. وحينما انتهى من ذلك مسح بيديه ما تبقى من أثر الدموع في عينيه وراح يمشي ويدور بين الصفوف بخطى بطيئة جدا، قاطعا بذلك كلّ حديث.

بعد دورتين أو ثلاث، توقّف بالقرب من طاولة رضا وقدور، حدّق فيهما جيدا، ثم مال برأسه وعينيه ناحية عصام وعليّ مركزا على هذا الأخير وقال: عليّ خُلق للعلم وليس لسواه، تم نظر في عصام دون أن ينبس ببنت شفة، بعدها ألقى نظرة خاطفة على وميس المنفردة بطاولة قبلهما، وأخيرا قادته خطواته بعد استدارة إلى الخلف نحو طاولتي وهي الأخيرة في الصف الأخير، وضع يده على رأس كمال وقال بصوت خافت لا يسمعه إلاّ من ألقى السمع: هذا لغزُ الحكاية، وجرحُها الدائم.

كرّر هذه الجملة مرتين، ثم اتّجه ناحية النّافذة في الجهة الأخرى وراح يتأمل الأشجار والبنايات المطلّة على ساحة المتوسطة، بينما رحنا نحن ننظر إليه ونتأمله في صمت وحيرة.

بعد تأملاته الغريبة، وسفره المبهم، قصدني مباشرة، صوّب عينيه بكلّ ما

تخزّنان من أشعة نحوي، طأطأت رأسي تقديرا وحياء، لكنّه أطال الوقوف عند رأسي، شعرت في البداية بالحرج، ثم بدأ الدم يغلي في عروقي.. بدأت رجلي اليسرى ترتعد، وهذا يعني أنّني أفقد توازني وهدوئي، وبدأت الأسئلة تتزاحم في رأسي.. يا ألله.. ماذا يريد منّي المتنبي، لاشكّ أنّه يبحث عن تهمة أخرى لإدانتي.. ماذا أفعل ؟ إنّني على وشك الـ..

أحسّ كمال بهذه التحوّلات التي طرأت عليَّ، وتنبَّهَ إلى رجلي التي ترتعش، وعلى الفور فهم ما يدور برأسي، فضغط على رجلي بقوة، ثم ضغط مرة ثانية، إنّه يترجّاني أن التزم السكوت وأن لا أنفعل.

في هذه الأثناء رفعتُ رأسي قليلا، فإذا بعينيَّ تقعان في عينيْ وميس، وبسرعة حرّكت رأسها، فهمت أنّها تترجّاني هي أيضا وتطلب منّي أن ألتزم السكوت. طأطأتُ رأسي من جديد، فإذا بالمتنبي يعتدل في وقفته ويقول: انظروا

رفعنا عيوننا جميعا امتثالا لأمره، فإذا به يدير يده في الهواء، راسما بإبهامه صفرا كبيرا ودائرة مغلقة، وبداخلها علامة استفهام، والحقيقة أنّنا سبقناه إلى ذلك، ورسمنا في مخيّلتنا أكثر من علامة استفهام وأكثر من علامة تعجب.

عندما انتهى من الرسم في الهواء، ألقى نظرة أخرى على مجموعتنا المتكونة من 6+1 والتي تحتلّ الطاولات الأخيرة وقال:

أربعة وثلاثون عاما من التدريس.. لم أصادف في حياتي مثلكم أبدا، يا أنتم، يا من تحتلّون المقاعد الخلفية، نعم أنتم السبعة، أنتم أغرب من درّستُ

في حياتي، فيكم اجتمعت كلّ المتناقضات، أنتم أذكى تلامذتي على الإطلاق وأغباهم في آن.. اسمعوا جيّدا أيّها المتأدبون المشوّشون.. أيّها الرائعون المارقون.. إنّني أكرهكم كثيرا، وأحبكم أكثر ممّا تتصوّرون.. أريدكم أن تفتحوا أذانكم جيّدا.. أريدكم أن تحفظوا درس اليوم، ولعلّه الدرس الأخير.. أنتم الستة.. ستسقطون الواحد تلو الآخر في شباك هذه البنت المدلّلة.. إنّها فعلا أجمل بنات حوّاء، لكنّها أمكرهنّ على الإطلاق.. ستستدرجكم إليها واحدا واحدا.. ستسرق منكم قلوبكم وعقولكم، وتسرقكم من أنفسكم.. ستخوضون المعارك تلو المعارك من أجلها.. ستعملون المستحيل للوصول إليها والظفر بحبّها برضاها.. وستعمل هي المستحيل لإبعادكم عنها، إنّها تجد المتعة في تعذيبكم.. ستحرقكم بنار أعدّتها في عالم الغيب لعشّاقها الأوفياء، ستحرقكم جميعا.. ثم تحرق نفسها بعدكم.. مفتاح نجاتكم ونجاتها يومئذ هو الصبر، اصبروا فإنّ نارها تحرق وتحرق وتترك أثارها على الجلد ولكنّها لا تقتل، طوبى لمن اغترف من إرث أجداده واعتبر، وكابد حرقة الصب والصبر، وروّضها دون ملل، طامعا في استرداد الوديعة.. اصبر يا عبد الله.. الأقدار ستسوقها إليك ذليلة مطيعة.

كلام المتنبي ثقيل، ووميس ليست سوى طفلة في عيون التلاميذ، ليست سوى شوكة في قلوب المحبّين، ليست سوى قطعة من جمال.. من ذا يصدق أنّ التي تبعث الدفء فينا، وتملؤنا بهجة وحبورا، سوف تحرقنا بعد حين!!!

كان من واجبنا أن ندافع عنها، وأن ندافع عن حبّنا وعن أنفسنا من خلالها، بل كان بإمكانها أن تدافع عن نفسها.. أن تعلن براءتها.. أن تبعد

عنها كلّ الشكوك، لكنّنا صمتنا جميعا واستسلمت وميس للبكاء.

بدا التوتر واضحا على الأستاذ المتنبّي، إذ فور توقّفه عن الكلام، أخرج من جيب مئزره قرصا ووضعه في فمه ثم ابتلعه دون أن يلحقه بماء.

توجه بعد ذلك إلى مكتبه.. جمع الأوراق والأقلام ووضع كلّ أشيائه داخل محفظته، ما عدا قلما رخاميا أهداني إياه وهو يقول: "هذا نصيبك في الدنيا.

رفع محفظته بيد، وسترته التي كانت على المشجب باليد الأخرى وخرج مسرعا..

3 أنا رابع إخوتي.. أبي عادل لا يفرّق بين أبنائه ولا يُظهر ميله لأحد، لكنّه كان دوما يعوّلُ عليَّ أكثر من غيري، ذلك أنّني أقرأ ما في رأسه وأتحسّس ما في نفسه فأسارع إلى تنفيذ ما يرغب فيه دون أن يطلبه منيّ.. كنت عصاه التي يتوكأ عليها ولسانَه حين يصمت..

كان يعيش أيامه يوما بيوم والأرزاق على الرزّاق.. ينفق ما يجنيه في يومه على أهله دون خوف من فقر محتمل، ما كان يحرص على شيء كحرصه على تربيتنا تربية دينية معتدلة، يأمرنا بالصلاة وبالإحسان إلى الجار، ومساعدة المحتاج.. ولأنّه جُبل على الصدق والوفاء فكثيرا ما كان يوصينا بهاتين الخصلتين، ومع ذلك كان لا يترك لوالدتي فسحة كبيرة في التصرف، ولا يأخذ برأيها إلاّ نادرا، يتدخّل في كلّ شيء، وكم كان هذا يحرجها ويجرح كبرياءها أمام أخواتها وعمّاتي، ومع ذلك كانت تحبّه كثيرا ولا تعصي له أمرا، كانت تغار عليه كثيرا، وتغار منه.. تقرصني بأصابعها وتقول لي" يا وحد العفريت": تحبّ باباك أكثر منّي"..

رآني والدي فيما يرى النائم في حلمه، أصعدُ جبلا وبين يديّ بطيختان، تسقط هذه فأخذها ثم تسقط الأخرى فأعود وأحملها.. وأنا على تلك الحالة "السيزيفية "إلى أن بلغت قمة الجبل ومعي البطيختان وفي رواية ترويها أختي الكبرى ومعي إحدى البطيختين.. يصرُّ أبي على أنّها رؤيا صالحة، والواقع يؤكد فعلا أنّها جزء من حقيقتي ومن واقع عشته وأعيشه.

4

مَنْ غير المتنبي يملأ ذلك المكان، كان يضفي بحضوره وشموخه هيبة ووقارا في القسم، لقد صعُب علينا أن نتأقلم مع أستاذ غيره. عوّضته الإدارة في البداية بمن هو أدنى منه في المستوى، بأستاذ يفتقر للمعلومات، وكانت تاؤه في الكلام طاغية حتى ليخيَّل للسامع أنّه يصفّر، فصرنا نلقّبه "بالتأتاء"، تحمّلناه شهرا كاملا لكنّنا في الأخير رفضناه، السنة الرابعة مصيرية بالنسبة إلينا، إنّها سنة الانتقال من المتوسط إلى الثانوي، استجابت الإدارة لطلبنا بسهولة لاسيّما وأنّه من الأساتذة الاحتياطيين ولم يكن مرسما، لكن مصيبتنا أنّها جاءتنا بأسوأ منه، بأستاذ لا أخلاق له ولا ضمير، بدأ منذ الحصة الأولى يحدّثنا عن بطولاته وغرامياته وكان كثيرا ما يركز النظر في وميس وكم نبّهنا الإدارة لذلك، لكنّه لم ينته، ونكاية فينا صار يتلفّظ بألفاظ نابية داخل القسم، وكان هذا كافيا لنثور،، لنحتجّ مرّة ثانية ونطالب بتنحيته. حاولت الإدارة بكلّ الطرق أن تصدّنا عن مطلبنا، وقد ورد إلى أسماعنا أنّ الأستاذ سيئ الذكر من أقارب مدير التربية.. لكن إصرارنا وتضامن بعض الأساتذة معنا حقّق مطلبنا، والحق أنّ التّغيير هذه المرة كان موفقا فقد استطاع الأستاذ الجديد في ظرف وجيز جدا أن يكسب ودّنا واحترامنا، ومع هذا ظلّت جبّة المتنبي أوسع من كل أساتذة الدنيا.

انتقلت حكايات مجموعة 6+1 إلى الثانوية بسرعة البرق وأضيف إليها الكثير من المبالغات، لذلك عملت الإدارة من البداية على تفريقنا في

الشعب والأقسام. وممّا جاء في التعليمة السريّة للسيّد النّاظر هو عدم السماح للمجموعة بالتجمع في ساحة الثانوية، وإذا لزم الأمر مضايقة هلال مع محاولة إقناعه بالمغادرة أو التحويل إلى ثانوية أخرى، وكذا إقناع وميس بكلّ الطرق بالابتعاد عن المجموعة المشاكسة، والتأكيد عليها بعدم تقديمها أية مساعدة أو دعم لهم مهما كان. وهكذا شيئا فشيئا قلّت لقاءاتنا وقلّ تأثيرنا.. ثم صرنا حكاية من الماضي..

5

أخيرا، وبعد سنوات كدّ واجتهاد وضعنا أقدامنا في الجامعة، التحقتُ بمعهد الحقوق والتحق صهيب بمعهد الآداب واللّغات.. لم تكن هناك جامعات في المدن الصغيرة في الثمانينات، لذا كان على الحائزين على البكالوريا من ولايات الشرق الجزائري أن يلتحقوا بجامعة بقسنطينة ذات السمعة المحترمة للدراسة فيها.

لم يكن صهيب القادم من جيجل بحاجة إلى غرفة بالحي الجامعي لأنه سيقيم عند جدّه، ودار جدّه لا تبعد عن دارنا سوى بنصف كيلومتر، هذا يعني أن لقاءاتنا ستكون يومية.. نعم سنلتقي كثيرا وسنتسكع كثيرا في شوارع سيرتا.

تعرّفت بصهيب عن طريق زميلي عصام الذي كان جارا لجدّه الباب للباب، أيّام كنّا ندرس في متوسطة الحي، كانا مختلفين عن بعضهما في كلّ شيء، وكأنّهما ولدا ليكونا نقيضي بعضهما، صهيب مشاكس يضحك كثيرا ويمزح كثيرا، يتأقلم مع كلّ الأوضاع بسرعة، ولا يستقرّ على حال.. يعشق الشِّعر وكرة القدم، يهوى الأفلام الرومانسية وقصص الحب، أمّا عصام فصارم لا يحب المزاح كثيرا.. ولكنّها ضريبة الجار ووصية والدته التي رأت في صهيب غريبا يحتاج إلى مؤانسة فأوصت ابنها "عصام "به خيرا، وألزمته بمرافقته.

ما جمع بيني وبين صهيب في البداية هو الشّعر.. وجدته يحفظ الكثير من قصائد نزّار قبّاني، وله محاولات شعرية يقلّد فيها العذريين.. كان يبحث عن الأذن الصاغية، وعندي أنا وجدها ووجد القلب المستعدّ لقياس سرعة

النبضات، ووجد لديّ أيضا بعض المحاولات الشّعرية.

في بداية كلّ عطلة دراسية يأتي صهيب رفقة والدته إلى بيت جدّه من أمّه، ولا يعودا إلاّ بعد انقضاء أيام العطلة.

بعد أيّام فقط من عودته إلى مدينته عقب انتهاء العطلة الربيعية، راسلني صهيب، كانت تلك هي أولى الرسائل بيننا. أذكر أنّها كانت مذيلة بمقطع شعري جميل، كتبه فور عودته، يعبّر فيه عن سحر المدينة سيرتا وجمالها الفتّان.. ويدعوها لتحتضنه وتحتضن عذاباته، يقول فيها:

قدمت لأشكو إليك الخليلا   وأغفو على صخرتيك قليلا

أتيـــتك ســـيرتا فلا تبعديني   خطاي تئنّ وتبكي السبيلا

توالت الرسائل بيننا بعد ذلك، لا يطرأ جديد في حياة أحدنا إلاّ ويخبر به الآخر، ولا يكتب أحدنا شعرا إلاّ ويكون الثاني أوّلَ من يطّلع عليه.

سنوات وساعي البريد على هذه الحال، ينقل أحلامنا ويحمل أوجاعنا. وإنّنا نشهد اليوم معا على أن تلك الرسائل وتلك المقاطع الشعرية البسيطة هي أصدق ما قلناه في حياتنا، وإنّها ستظلّ شاهدة علينا وعلى حماقاتنا الأولى.

انتهى عصر اللّهو والخربشة وبدأ عصر الجدّ والتّدوين.. القطار المتوجّه إلى عالم الشعر الفسيح في انتظارنا ولا ينبغي أن نتأخّر عنه.

اليوم.. بعد قليل ستعلن صفّارة الزمن عن بداية الرحلة الكبرى.. عن بروز أسماء جديدة في عالم الشعر.. فهل هيّأ صديقي صهيب نفسه كما ينبغي؟ كيف سيقابل الجمهور؟ ماذا سيقرأ؟ هل سيضحكون إذا ما تلعثم في الكلام أو أخطأ في اللغة؟ أم أنّهم سيتجاوزون عن كل ذلك، ويكتفون

بتقديم ملاحظات بسيطة، ثم يصفقون تشجيعا له.

كل هذه الأسئلة دارت برأسي وأنا أتّجه رفقة صديقيَّ عليّ -مخ جماعة6+1- وبيبي زميلي في معهد الحقوق إلى القاعة (101) حيث ينظّم قسم الآداب أمسية شعرية لمجموعة من الطلبة الجدد، ومن بينهم صديقي صهيب الذي يشارك لأوّل مرّة.

الإعلانات في كل مكان، في النادي،، في المطعم،، في لوح الإشهار،، على الجدران المحاذية للأقسام،، أمام المدرجات...إلخ.

لا شك في أنّ الطلبة قد قرأوا اسم صهيب الوافد الجديد، وكذلك الأساتذة وزوّار الجامعة.. هذا انتصار لطفولتنا وانتصار لأحلامنا الأولى.. إنّها فرصتك يا صديقي صهيب،، إنّها فرصتنا معا لنعرف مستوى محاولاتنا قياسا بما يكتبه الآخرون، لاسيّما الشباب الجدد.

كان صهيب في المنصة رفقة ثلاثة أشخاص.. ما إن رآني أدخل القاعة حتى ابتسم ابتسامة مرفقة بتنهيدة خفيفة تنمّ ارتياح بعد ترقّب.. رفع بعدها يده وطلب منّي أن أتقدّم إلى الأمام، هذه الحركة جعلت الأنظار تتجه أليّ، منهم من أدار رأسه، ومنهم من التفت كلية إليّ، شعرت بخجل ورحت أبحث بين الطلبة عن منفذ أتقدّم من خلاله، وأنا أتفقّد المكان بعينيَّ همس في أذني صديقي عليّ منبها إياي بأن الكراسي كلّها محجوزة، فرفعت يدي معتذرا لـ صهيب.

الواقفون في الخلف أكثر من الجالسين على الكراسي، المنصّة كانت للأستاذ الأخضر الذي ينشّط الجلسة وهو من أساتذة المعهد. وللطالبين الشاعرين

حسام وعبدو، وبينهما ولأوّل مرّة صهيب.
بعد كلمة ترحيب ألقاها الأستاذ الأخضر انطلقت الأمسية، كانت البداية مع عبدو الذي صال وجال، فأذهل الجمهور بفصاحته وصوته الجهوري، بعده قرأ حسام فأمتع الجمهور بقصائده الرومانسية الحالمة. وأخيرا جاء دور صديقي صهيب، فهزّ الجمهور هزّا بأدائه الجيد. أمّا الجمهور ومعظمه من الطالبات، فكان سخيّا جدا، حتى "بيبي" و"عليّ" صفقا كثيرا حتى احمرّت أكفّهما.. أمّا أنا فكدت أطير.
كنّا ننتظر من الأستاذ الأخضر أن يفتح بعد القراءات الشعرية مجالا للنّقاش وطرح الأسئلة، لكنّه فاجأ القاعة وفاجأني بدعوته إياي للصعود إلى المنصّة لقراءة الشعر.
لم أصدق أذني في البداية وأنا أسمعه يقول: أدعو الشاعر الواعد هلال القادم من معهد الحقوق إلى المنصة لإلقاء قصيدة، لكنّه كرّر ما قاله وأشار بيده إليّ.
لماذا فضحتني يا صهيب؟ لماذا أقحمتني فيما لست أرغب فيه الآن؟ لماذا كتبت في الورقة الصغيرة اسمي وسلّمتها للأستاذ؟ أنا لست مستعدا لهذا.. لم أهيّئ نفسي.. لماذا؟؟
لم أفق من دهشتي إلاّ وأنا أتسلّم الميكروفون. لا أدري كيف مشيت ولا كيف وصلت إلى المنصّة وسط ذاك الزّحام.
جلست إلى يسار الأستاذ الأخضر ويدي ترتعش، شكرته وشكرت أعضاء النادي على ما يبدلونه من جهد في تنظيم مثل هذه اللّقاءات، ثم أخرجت

من جيبي ورقة كنت كتبت فيها منذ أيّام محاولة شعرية وقرأت.

ما إن انتهيت من قراءة المقطع الأول حتى صفق الجمهور بحرارة، وسمعت صوتا من الخلف يقول: أعدْ.. أعد..، وأعدت المقطع، ثم أكملت القصيدة.

لضيق الوقت لم تعط الكلمة للقاعة.. لم يناقشنا أحد ولم يوبّخنا أحد.

بعد الأمسية مباشرة، وبدعوة من صهيب ذهبنا لاحتساء قهوة عند "حشحوش" بائع القهوة والشاي في المكان الفاصل بين الحرم الجامعي والغابة المحاذية للجامعة، وهي فرصة كما قال لنتعرّف على بعضنا أكثر.

أثناء حديثنا عاتبتُ صهيب على مبادرته الرائعة جدا، فأقسمَ لي أنّه تفاجأ هو الآخر، وأنّه لم يعط أية ورقة للأستاذ لخضر، إنّما الطّلب جاء من القاعة في ورقة صغيرة تقدّمت بها إحدى الطالبات، وهذا بالضبط ما أكده حسام وعبدو وأقسما أنّ صاحبة الورقة كانت جالسة في الصّف الثاني، في هذه اللّحظة انتفض عليّ:

ـ أعتقد أنّها هي.. أقسمُ أنّها هي يا هلال

فسألناه جميعا: من؟

فردّ مؤكدا: نعم هي.. عرفتها من خلال معطفها البنّي وشالها الأزرق.

سألته مستغربا: هل تقصد ومي..، لكنّني لم أرها.. لا يمكن ذلك..

قال بيبي مؤيدا: فعلا كانت بالقاعة فتاة فائقة في الحسن وكانت تضع على كتفيْها شالا أزرق، وقد غادرت مباشرة بعد انتهائك من الإلقاء يا هلال..

على الفور تدخل صهيب موجها كلامه لـ عليّ:

ـ عذرا يا الأخ عليّ، صاحبة الورقة لم تكن ترتدي معطفا بنّيا ولا شالا..،

فرد عليه عليّ:

ـ التي أقصدها كانت في الجهة اليسرى من القاعة أعتقد في الصفّ الثالث، هي التي سلّمت الورقة للطالبة وكلّفتها بإيصالها إلى المنصة.. لا عليكم يا جماعة دعونا منها الآن.. دعونا نتمتّع بقهوة حشحوش البشوش وبهذا اللقاء التاريخي.

اتفقنا قبل أن نفترق على لقاء آخر يوم الخميس بمقهى الكأس الذّهبي بباب القنطرة..

قبل مغادرتي قهوة حشحوش تقدّم منّي أحد الطلبة، هنّأني على القصيدة التي ألقيتها ثمّ سلّمني ظرفا بريديا مطويا وطلب منّي أن أقرأ ما بداخله عندما أعود للبيت، تبادر إلى ذهني أنّها محاولة شعرية له يريد معرفة رأيي فيها، ثم انصرف ذهني إلى وميس فلعلّها أرسلت تهنئني على القصيدة وعلى نجاحي في أوّل اختبار في مواجهة جمهور الشعر.. وأمام فضولي المتزايد قررت أن أفتح الرسالة وأقرأ ما فيها.

بمجرّد أنّي فتحتها عرفت خط أستاذنا المتنبّي فكدت أطير فرحا وتمنّيت لو كان حاضرا معنا في القاعة ليرى ثمرة جهده في القسم، إنّه هو من زرع فينا بذور حبّ العربية وحبّ القرآن الكريم والشعر العربي القديم..

لم يكتب في رسالته سوى بعض الكلمات، أخبرني فيها أنّه مقيم بإحدى

الدول العربية، وبأنّه غادر البلاد بعد تهديدات متكرّرة وضغوط، وأنّه يتابع الشأن العام وشأني أنا بالذات، وطلب منّي في الأخير أن أكتم الأمر وأن يظلّ سرّا بيننا..

6

قال عصام مستهزئا لـ صهيب: الشعراء مجانين وأنت أصغرهم سنّا.

فردّ صهيب باستهزاء مماثل: أمّا أنت يا جار جدّي، فأصغر تلامذة الحجّاج، دائما تشهرون سيوفكم في وجه من يعارضكم أو يخالفكم الرأي.. لا تعرفون سوى لا يجوز، حرام،، بدعة،، همّكم في الدنيا بطونكم ثم تكفير النّاس..

أدار عصام وجهه إليّ، وقال مستغربا:

ما يحيّرني فيك يا الأخ هلال، هو مصاحبتك لهذا الشقيّ.. بربك كيف تطيقه وتصبر على طيشه؟

فقلت له مهدئا: ربما لأنّني لا أرى فيه ما تراه أنت.. أعتقد أنّك تقسو عليه يا عصام، وهذا لن يزيده إلاّ ابتعادا عنك، ونفورا من الدّين الذي تدعو إليه.

قاطعني صهيب بلهجة حادة: أنا هكذا وسأظلّ هكذا، أمّا هذا العصام فمشكلته أنّه يغار منّي، هذا كلّ ما في الأمر

فردّ عليه عصام وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

نكتة والله.. أغار من مجنون، صديقك يا هلال والذي شاءت المقادير أن يكون جاري مجنون.. بالله مجنون.

في اللّيل وأنا في فراشي، استرجعت شريط أحداث اليوم.. عشت تفاصيل الأمسية، وكلّ الحديث الذي دار بين صهيب وعصام، ووجدتني بعد ذلك أغرق شيئا فشيئا في عالم غريب مليء بالأسئلة والألغاز.. من أنت يا أبوللو

يا رب الشعر!؟ يا من أسّس لك الإغريق إمبراطورية، وجعلوا لك صرحا في قلوب الشعراء، مَن الأجدرُ بالبقاء أنت أم هوميروس؟ ومن أنت يا شيطان الشعر؟ يا خاطف الأسماع ومنمق الألفاظ.. يا من خلوت بامرئ القيس والشنفرى، وخلّدت عنترة العبد وقيس بن الملوح وجعلت الشعر ديوان العرب.

يا حسّان يا من مدحت فأجدت، وهجوت فأصبت، هل كنت وحدك حين قلت؟ أكانت نبالك أم نبال روح القدس أم كنتما لحظة القول واحدا.

الآن فهمت.. وجدت جوابا شافيا لسؤال قديم، فهمت لماذا تهتم الجرائد والمجلاّت والإذاعات وحتى الفضائيات بالشعراء الشباب، تحاورهم وتقدّمهم للنّاس حتى وإن كانوا صغارا تجربة وسنّا، ولا تلتفت إلى المبتدئين من الأطبّاء والطيّارين والمحامين والمهندسين..

فهمت لماذا يغار عصام من صهيب.

هل كانت وميس في القاعة حقا؟ هل هي التي حرضتهُن على التصفيق لي بحرارة؟ متى دخلت؟ ولماذا غادرت القاعة بعد انتهائي من الإلقاء مباشرة..

كيف حدث كلّ ذلك ولم أنتبه !!

لماذا لم تخبرنا الإدارة يومها أن المتنبّي قد تعرّض للضغوط والتهديد بسببنا، من يكون ذلك الطالب الذي أوصل الرسالة، هل هو ابنه؟ لماذا طلب منّي أن أقرأها عندما أعود إلى البيت؟ ماذا فعل المتنبي حتى يهدّد ثم يهجّر، لماذا طلب منّي أن أكتم أمر اتصاله بي؟!!!

لم أجد مخرجا من هذه الدوّامة إلاّ بالهروب والاستسلام للنّوم.

اكتفيت في أوّل لقاء لنا بمقهى" الكأس الذهبي" بالاستماع، تحدّث صهيب وحسام وعبدو كثيرا، وتناقشوا كثيرا، اختلفت آراؤهم أحيانا وتقاربت أحيانا، قرأ كل واحد منهم شيئا من شعره، أمّا أنا فقرأت قصيدة قصيرة عنوانها (لن يفيض الدمع منّي)، أبدوا إعجابهم جميعا على الرغم ممّا فيها من أخطاء نحوية، أمّا فقدانها للوزن فتلك مسألة أخرى، لا حديث عنها الآن، لقد تحدّث المتنبّي طويلا في القسم عن هذا العالم الغريب وتحدّث عنه صهيب مرارا، ولكنّني لم أتشجّع بالاقتراب منه بعد.

بينما كانوا هم يتحدثون، كنت أنا أصرخ في أعماقي وأقول (مهلا يا جماعة مهلا.. ليس هلال من يجلس مجلس التلميذ، ما جئت لأستمع إليكم فقط، أريد أن أكون رقما فاعلا في عالم الشّعر هذا.. أريد أن أختصر الزمن وأصل إليكم في أسرع وقت.. نعم في أسرع وقت، لديّ ملهمتي وميس ولديّ من الإرادة ما يكفي وإنّني آت بإذن الله.

الجامعة ليست الثانوية وغياب الطالب في المدرّج لا يقصيه ولا يحرمه، هو مجبر فقط على حضور الحصص التطبيقية، لذلك فأنا شديد الحرص على حضور الأنشطة الأدبية بدلا من المحاضرات.. أمّا ما ينقصني من دروس فأصوّرها من كراريس بيبي.

بدلا من أن أتوجّه صباح يوم السبت إلى المدرّج "أ" حيث يلقي أستاذ الإجراءات المدنية محاضرته السادسة، توجّهت إلى مكتبة الجامعة، تصفّحت الفهارس ثم طلبت مجموعة من الكتب، من بينها كتاب في علم العروض للأستاذ نويوات.

وأنا أتسلّم الكتب قال لي المشرف على الإعارة وهو يعيد لي بطاقتي المكتبية:

أنت تدرس القانون.. وهذه الكتب كلّها أدبية..!!

قلت له وقد شعرت بفخر داخلي: للحكاية سر وعليك أن تكتشفه..

كي لا تضيع منّي المعلومات ولا تذهب قراءاتي سدى، كنت أعرض ما أقرأه على صهيب وبشير وبيبي ورضا، كل مساء في المقهى وبعدها نتبادل الآراء حول أهمّ ما تطرحه الكتب من أفكار.

كانت لقاءاتنا المسائية بمقهى "الكأس الذهبي" عبارة عن جلسات تمهيدية لجلسة نهاية الأسبوع التي يحضرها إضافة إلى المجموعة سالفة الذكر آخرون من عشاق الكلمة ومن بينهم طبعا عبدو وحسام.

الفيلاّ التي يسكنها صديقي بشير محاذية لمنزلنا، اختار بحكم تكوينه العلمي التخصّص في الإعلام الآلي في الجامعة، لكنّه يعشق الأدب، كان دائما يشجعني على الكتابة، يحسن الاستماع، وهو من أنصار القصيدة العمودية ويطرب أكثر للقصائد السياسية، على عكس بيبي الذي لا يحبّ السياسة ولا يطرب للشّعر السياسي.. أمّا رضا الأشقر وهو أحد أفراد المجموعة 1+6، فيطرب للشّعر الحر أكثر من العمودي، يحبّ أشعار نزّار قباني لاسيّما المغناة.. أمّا قصائدي أنا، فيحفظ بعضها عن ظهر قلب، ويتقزز من بعضها ويتمنّى أن أعدمها لأنها تافهة في نظره، وأنا لا أناقشه في ذوقه، خاصة بعد أن تأكدتُ ممّا نبّهني إليه بشير من قبل، وهو أن رضا لا تعجبه القصائد التي يذكر فيها اسم وميس أو فيها ما يوحي أو يُحيلُ عليها حتّى

وإن كانت رائعة بالمعنى الفنّي، أمّا صهيب فهو الشاعر الذي لا يتوقف عن المزاح وعن التعليقات الساخرة، لكنّه صارم لا يتسامح في اللّغة.

تمكنتُ في مدة وجيزة من استيعاب درسي اللّغة العروض وحفظت الكثير من القواعد النحويّة والصّرفية، وكم سرّني ذلك خاصّة بعدما تمكّنت من تصحيح بعض أشعاري، وسررت أكثر عندما أرسلتها إلى الجرائد، ورأيتها بعد أيام فقط تنشر الواحدة تلو الأخرى.

وميس في قصرها، وأنا شاعر مغرم.. لي رغبة في اقتلاعك أيها الرجل الضخم، أنا الآن في حاجة إلى رسول يبلغ عنّي.. بحاجة إلى من يأخذ هذه الجريدة إلى الأميرة.. أريدها أن تقرأني الآن، أن تراني الآن وأنا أطبع أولى قبلاتي على جبينها.. أريدها أن ترى نفسها بين السطور.. أنا يا أيّها النّاس صاحب هذه القصيدة المنشورة في الجريدة اليوم.. أنا عاشق الأميرة فمن يبلغ عنّي..

أحسست وأنا أعبر جسر باب القنطرة متوجها إلى الحي القديم "رحبة الصّوف" بأن العيون تلاحقني، ربّما كانت عيون عشّاق الشّعر، أو ربّما عيون الرجل الضخم.. ماذا أفعل الآن؟ لا لن أتردّد.. أنا مستعد لخوض التجربة.. نعم مستعد لتحمّل كل النتائج.. أريد أن أراك الآن يا وميس، نعم الآن، هل تسمحين؟

ثلاث سنوات في الجامعة مرّت كلمح البصر.. ثلاث سنوات والنبضات تخطئ، ما من عاشق في الأرض إلاّ ويعرف حبيبته إلاّ صهيب، هذا المدمن على الحبّ حدّ التخمة، إنّه يعشق امرأة لا يعرفها.. يريدها هي ولا يقبل

بسواها.. لا يكتب الشعر إلاّ لها ولا يتحدث إلاّ عنها.. لقد غامر صوب النّساء كثيرا.. اقترب من هذه بسبب وجود شبه كبير بينها وبين التي لم يرها إلاّ في خياله، واستمع لتلك، لأنّ نبرة صوتها هي النبرة نفسها التي يسمعها دائما في أعماقه، وأعجبته الأخرى لأنّها تلتقي في ذوقها مع التي جعلته يفرّق بين لوحة جميلة وأخرى أقلّ جمالا.

ثلاث سنوات مليئة بالفتوحات الشعرية وبالشهادات التكريمية، صرنا أنا وصهيب اسمين شعريين معروفين في الجامعة، وخارجها أيضا.

ثلاث سنوات ونحن نتحدّث في الشعر، الشعر زبدة صباحنا.. الشعر فاكهة المساء.. الشعر كذا والشعر كذا.. أمّا درس الأدب ودرس الحقوق فيأتيان في المراتب اللاحقة.. كان الشّعر بالنسبة إلينا دائما فوق النّحو والصّرف، وفوق كلّ الإجراءات والقوانين.

ثلاث سنوات من التجارب الفاشلة، ظلّ صهيب خلالها يبحث عن حبيبته في غيرها، يحدّثني عن هذه، ثم عن تلك، وبعد مدة ينشغل بثالثة، وبعدها يعتذر ويقرّ بأنّه أخطأ مرّة أخرى، وأنّ التي يبحث عنها غيرهنّ جميعا.

صهيب تعيس، وعلى الرغم من تعاسته فهو لا يملّ ولا ييأس.. الضحكة لا تفارق شفتيه، دائما يبحث في الطالبات عن قصيدته الحلم، عن الفتاة التي تغار الجميلات منها، ومنها يغار القمر.

لم تبق إلاّ شهور قليلة وأغادر الجامعة، أمّا صهيب فيتحمّل عبء مقياسين متخلّفين من السداسي السابع، وسيضطرّ للمجيء في الدخول المدرسي القادم، فمن سيرافقه؟ ومن سيصعد إلى منصّة الشعر معه؟ من سيحمل

أوزاره ويخفّف عنه وهو الذي لم يجد بعد ملكة عرشه.

في صبيحة من أصباح الربيع الباردة وأنا أرتشف قهوتي عند حشحوش رفقة الصديقين عليّ وبيبي، أقبل رضوان رئيس النادي الأدبي وفي يده كرّاسة صغيرة، كان قد سجّل فيها رزنامة نشاطاتهم الدورية، وأخبرني بأنّهم ينوون تنظيم أمسية شعرية كبيرة على شرفي، وطلب منّي تأكيد الموافقة مع اقتراح شاعرين يكونان معي في المنصّة.

بعد أن نال ما جاء من أجله وسجّل الأسماء قفل راجعا إلى معهد الآداب، وكذلك انصرف بيبي، وبقيت أنا وعليّ وفناجين حشحوش نخزّن ما توفّر من قرس الصباح..

قال عليّ وهو يرتشف ثمالة قهوته:

. هل تذكر يا هلال ما قاله أستاذنا المتنبّي في الدّرس الأخير؟

. طبعا يا عليّ، لا يمكن أن أنسى تلك الضحكة الهستيرية والدموع والقرص الأبيض، ولعلمك يا عليّ، ما زلت إلى الآن أحتفظ بالقلم الرخامي الذي أهدانيه.

. حقا ؟!!

. نعم

. ألا ترى أنّه قد أصاب فيما يخصّنا ويخصّ وميس

. أجل لقد أصاب وخاب من نسيَ الدّرس

أرسل عليّ تنهيدة، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر، وضع لفافة بين شفتيه، بعد برهة أشعلها، نفث الدّخان في الهواء وقال: أعترف أمامك يا

هلال أنّني أكبر الخائبين.. اسمح لي أن أبوح لك بسرّ لطالما أخفيته عنك.. اسمح لي أن أطأطئ رأسي حياء، أن أعترف بضعفي وحماقتي، إنّني شخصيا وقعت في شرك وميس لقد استدرجتني إلى نارها.. أرغمتني بعد طول صبر وبعد احتراق كبير أن أبوح لها بحبّي، وحين جهرت به صفعتني، نعم صفعتني صفعة لن أنساها ما حييت، ثم خيّرتني بين الاعتذار لها وطلب العفو والانحناء صاغرا، أو تدخلني السجن.. كنت أعرف يا صديقي هلال أنّها تستطيع أن تفعل ذلك،، تستطيع أن تشوّه صورتي في المدينة وتنال من سمعتي، تستطيع أن تسحقني سحقا.

. لم أعهد عليك هذا من قبل، إنك مذعور.. ألهذه الدرجة لأنت خائف منها؟

. أعترف لك بضعفي وبخوفي الشّديد منها، لذا قرّرت أن أرحل.. لكن قبل ذلك أريدك أن تسامحني.. أعرف يا صديقي أنّك أنت الأجدر بها، أعرف أنّك تحبّها حبّا كبيرا، وأعرف أنّها هي أيضا تحبّك، نعم إنها تحبّك حدّ الجنون، هي نفسها قالت هذا الكلام وردّدته أكثر من مرّة.

وأنا أستسلم لأحكام القدر يا صديقي هلال، أؤكد لك أنّني لم أضع أبدا في نيتي أن أعتدي على حرمة من حرماتك.. لكن وميس ماكرة شديدة المكر، كانت تعرف نقاط ضعفي، تعرف أنّ بسمة واحدة منها تكفي لخلخلتي..

كانت تتعمّد ذلك.. تتفنّن في استدراجي حتى أفقد السيطرة على نفسي.. أكون حاضرا تمام الحضور فلمّا تأتي هي وتطغى بحضورها أغيب.. أغيب،

تماما كما يحدث في الأفلام، تنوّمني ثم تأمرني فأفعل، أحمد الله أنّها لم تأمرني بقتلك.

اهتزّ جسمي لهذه الجملة الأخيرة، فسألته مندهشا:

. تقتلني؟!!وهل في نيّتها أن تفعل ذلك؟

. لا أنا لم أقل هذا، لكن أعرف أنها تحبّك حدّ الجنون، وقد تلجأ بدافع الحبّ إلى ما لا يخطر على بال أحد، قد تفعل ذلك إذا رغبتَ عنها أو أسْلمتَ قلبك لغيرها.

أردت أن أعرف أكثر فسألته:

. إذًا أنت جاهز لقتلي، فقط تنتظر الإشارة منها؟

ألقى ما تبقى من سيجارته في الأرض وقال:

. كما قلت لك.. أنا أنعدم أمامها، أصير في حضرتها مسيّرا لا مخيّرا.. قدرتي على التفكير تتوقف، لا أستطيع ردّ طلباتها أو مخالفة أوامرها.. وهذا ما يدفعني للرحيل..

. الرحيل!! إلى أين؟

. كندا إن شاء الله..

. كندا؟

«كان عليّ طالبا في قسم الإلكترونيك وكان على أبواب التخرج، كان طيلة مشواره الدراسي ومنذ الابتدائي متفوقا في الدراسة وقد حافظ على تفوقه حتىّ في الجامعة، ومن حسن حظّه أنّ وزارة التعليم العالي نظّمت مسابقة وطنية في التخصّص الذي يدرس فيه، وكانت المسابقة مفتوحة فقط

للحائزين على معدل 16 فما فوق في الدورات العادية خلال السداسيات السبعة، ومن حسن حظّه أنّ الإدارة دعّمت ملفّ ترشّحه بملاحظات جيّدة عن سلوكه وانضباطه خلال السنوات الثلاث الماضية، وهذا ما جعله ينال المرتبة الثانية وطنيا وكان للثلاثة الأوائل الحق في اختيار البلد الذي يكملون فيه دراستهم، علاوة على مِنحة محترمة يتقاضاها الطالب شهريا بالعملة الصعبة، وكانت البلدان المقترحة هي بريطانيا، كندا والولايات المتحدة.»

قلت لِ عليّ وأنا أمازحه:

. بودّي أنا أيضا أن أذهب، ألا تسمح الوزارة باستبدال اسم باسم، أنا أذهب إلى كندا وأنت تشارك في مسابقة أخرى..

ابتسم بسمة خفيفة وقال: حتّى وإن سمحت الوزارة ووافقت كلّ الوزارات، فإن وميس لن تقبل ولن تسمح لك بالهجرة أبدا.

فقلت مقاطعا ومعارضا: مهلا يا صديقي عليّ مهلا.. ومَنْ قال بأنّني سأطلب الإذن منها، صحيح أنا لا أفكّر في الابتعاد ولا أفكّر في الهجرة، لكن تأكد أنّني عندما أقرّر الذهاب فلن أطلب الإذن من أحد، ولن يمنعني أحد.. لا وميس ولا غيرها.

. لهذا هيّ تحبّك، لأنّها لم تقدر على ترويضك، لأنّك عنيد ولا تنفع معك الإغراءات والتهديدات، أعرف يا صديقي أنّك عنيد، لكنّني أعرف أيضا أنّ وميس قادرة على منعك، على كلّ حال ليس هذا موضوعنا، أنا مقبل على السفر.. سأرحل بعد شهر ونصف.. هيَّ فرصتي لأحقق حلمي القديم، كنت دائما أحلم بإكمال دراستي في الخارج، وهي أيضا فرصتي

لأستقرّ بعيدا عن وميس وجحيمها. لكن يؤلمني كثيرا أن أذهب وأنت غاضب عنّي، أتوسل إليك وقد عرفتَ حقيقة ما بدر منّي.. أتوسل إليك بأن تسامحني وأن تظلّ صديقي وأخي كما كنت دائما.

رفعت رأسي إلى السماء ثم صوّبت عينيَّ في عينيه وقلت:

. ثق تماما أيّها الصّديق العزيز بأنّك لم تفعل شيئا يجعلني أغضب منك أو حتى أعتب عليك.. وميس ليست امرأة عادية.. من يعرفها، من يتقرّب منها لا بدّ أن يحبّها بجنون، فإذا صادفها إنسان أو صادفته ولم يفتتن بها، فاعلم أنّ هذا الإنسان إمّا مريض ليس له علاج أو نبيّ لا يصغي لهواجس النفس والأهواء.. أنت لم تخطئ.. ما زدت أن قمت بتجربة قاسية، ينبغي أن تستفيد منها.. أنا أشجعك على الذّهاب، لقد كنت المتفوق دوما في الدراسة، ألم يقل المتنبي بأنّك قد خلقت للعلم لا لغيره، نعم إنّه على حق وصدق رسول الله حين قال: "وكلّ ميسّر لما خلق له"، إني أشجعك.. لكنْ إيّاك إيّاك أن تنسى أهلك وبلدك، إيّاك أن تنسانا.

أرسل علي تنهيدة كبيرة تنم عن انشراح عميق وقال:

. أشكرك كثيرا يا هلال، أنت فعلا أخي الذي لم تلده أمّي، لقد أعدت لي ثقتي بنفسي.. نِعمَ الصديق ونعم الأخ أنت.. هكذا كنت منذ طفولتك، صاحبَ قلب كبير، كنت دائما كبيرا في عينيّ، وها أنت اللّحظة تكبر أكثر، فعلا إنّك الأجدر بوميس.. الآن يمكنني أن أذهب وأنا مرتاح الضمير.

. ربما سيكون ضميرك مرتاحا، لكن ستعيش هناك بقلب متعب وكسير

. لا تفكّر بهذا، فالطّب كما تعلم متطور في كندا، سأستبدل هذا القلب

المريض بآخر جديد معافى من كلّ الأمراض..
قلت له وأنا أصافحه مودعا: أؤكد لك أنّ المرض سينتقل إلى القلب الجديد تلقائيا.
في المساء وقبل أن يلتحق بنا بشير وصهيب بالمقهى، سألت رضا عن عليّ وعمّا إذا كان على علم بما حدث له مع وميس فزوّدني بتفاصيل كنت أجهلها.
"كانت وميس بحاجة إلى إدخال بعض التعديلات في القصر وكانت بحاجة إلى إعداد دليل خاص بمعالم المنطقة عموما وبالقصر على وجه الخصوص، وهذا ما جعلها تفكّر في الاستعانة بنا كلّ في مجال تخصّصه.. طلبتْ من كمال وهو الطالب في قسم كيمياء أن يأخذ إلى أستاذه رئيس المخبر عيّنات من المياه الساخنة النابعة من الصخور في الجهة الشرقية من القصر وإجراء تحاليل عليها، وكذلك بتحليل التربة ومعرفة كمية الآزوت التي تحتويها.
أمّا عليّ -الإلكتروني- فقد طلبت منه الإشراف على تركيب أجهزة المراقبة من كاميرات ومنبّهات في الأماكن الضرورية . ليتسنى لها مراقبة كل كبيرة وصغيرة تحدث في القصر.
استغلّ عليّ هذه الفرصة وصار يتردد على القصر، صارت تستقبله دون موعد سابق وأحيانا هي التي تطلبه في الهاتف وتستشيره في بعض أمورها الخاصة وهذا ما دفعه للتمادي أكثر.
في ليلة من ليالي الشتاء الباردة قصد عليّ القصر، وأبدى رغبته في مقابلة

الأميرة، لكن حارسها الخاص السيّد مولود اعتذر له ومنعه من الدخول، وأوضح له أنّ الوقت غير مناسب، لكن عليّ ألحّ عليه، وأمام إلحاحه اضطر السيّد مولود إلى دفعه بالقوة ثم أمر بإخراجه خارج أسوار القصر، فغضب عليّ وثار وقال كلاما غير لائق في حقه، ثم راح يبحث على ثغرة في السور يعاود الدخول منها، فلمّا يئس من إيجاد ثغرة جاء بحجرة كبيرة وأخرى أقل منها وضعها فوقها وصعد في السور ثم قفز إلى الداخل، وراح يمشي قاصدا جناح الأميرة وميس، فلحق به أحد الحرّاس محاولا صدّه، فواجهه عليّ بلكمة قوية أسقطته أرضا. وعلى إثر صرخة مدوية هزّت أركان القصر أطلقها الحارس انطلقت المنبّهات واشتعلت أعمدة الكهرباء التي تم تركيبها بعنايته، وأحاط به الحراس من كلّ جانب وكان في يد أحدهم مسدس، وبعد محاولة فاشلة للهروب قبضوا عليه وسلّموه للسيّد مولود الذي طلب بدوره الشرطة من خلال هاتفه اللاّسلكي.

في الساعة العاشرة صباحا من نهار الغد هتفت وميس للشرطة وطلبت منهم إطلاق سراحه شريطة أن يمرّ بها ويطلب الاعتذار.. وقد وافق عليّ وأمضى على هذا الشرط.

يا لها من ماكرة، إنّها تعلم أكثر من سواها أنّ عليّا فعل فعلته بدافع الحب الجنوني الذي يهوي بصاحبه في الهاوية، تعلم في قرارة نفسها أنها شريكة معه ومتواطئة، هي التي حرّضته وشجعته وغرّرت به، هي التي سحرته بابتسامتها ونظراتها، وهي التي جعلته يحلم ويحلم، وعلى الرّغم من علمها بذلك اشترطت عليه مقابل إطلاق سراحه أن يعتذر لها أمام الملأ، ويعتذر

كذلك لحارسها الضّحية وللسيّد مولود، ثمّ يتعهّد بعد ذلك بالعمل في القصر مدة شهر كامل، يطبق الأوامر بحذافيرها لا يناقشها ولا يعصي لها أمرا، وإلاّ فمصيره السجن.

طأطأ عليّ رأسه.. اعتذر لها وللسيّد مولود وللحارس وقبِل بكلّ الشروط، ظنّا منه أن الأميرة ستصفح عنه ولو بعد حين، ثم تعود المياه إلى مجاريها، لكنّ الأميرة لم تكن كذلك، فقد ضحكت حتى بانت أضراسها وسخرت منه، ثم طلبت منه أن يتنحى من طريقها ويختفي من حياتها نهائيا، وأن لا يقترب من القصر مرة أخرى.. قالت له بلهجة فيها من السخرية الكثير:

أنت جبان يا صديقي عليّ، جبان لأنك انحنيت لامرأة ورضخت لكل طلباتها، جبان لأنّك رضيت بالمهانة.. تخشى النّوم في السّجن، يا لك من جبان، الرجال لا يخشون السجون، يفضلون الموت إذا تعلّق الأمر بكرامتهم، أنت جبان ولا مكان للجبناء في قائمة أصدقائي، وداعا يا صديقي الجبان.. وداعا.

7

تسعة أعوام من الانتظار

تسعة أعوام من الانشطار

كنت قبالة التلفاز أتابع نشرة الأخبار وكانت زوجتي "صليحة " في المطبخ منشغلة بتحضير العشاء، أمّا ولداي سامي، ودنيا فكانا يلعبان بالقطع الصغيرة في الغرفة الثانية.

فجأة رنّ الهاتف فأخذت السماعة

. ألو

. السلام عليكم أخي هلال، أنا فاتح..

.كيف هي أحوالكم يا فاتح

قال بنبرة هادئة أخافتني: سآخذ أبي إلى المستشفى، من الأفضل أن تأتي

. ماذا حصل له.. ماذا حصل يا فاتح ؟

. لا أدري بالضبط، ما أعرفه أنّه سقط فجأة من الكنبة وأغميَ عليه..

. وهل أفاق الآن ؟

. ما زال غائبا عن الوعي وهو الآن يتنفس بصعوبة.. سنأخذه حالا إلى المستشفى

. نعم.. خذوه بسرعة، سألحق بكم.

وأنا أهمّ بالخروج، سمعت زوجتي صليحة تدعو له، ثم ترجّتني والدموع تسقط من عينيها أن أكلّمها في الهاتف حال ما تتاح الفرصة، لتطمئن عليه وعليَّ.

تذكرت وأنا أتّجه نحو محطّة سيّارات الأجرة سيارتي البنيّة التي بعتها منذ شهور، لم تكن تلك السيّارة بالنسبة لي وسيلة نقل فحسب، بل كانت

رفيقة أسفار وحاملة أسرار، وصارت مع مرور الأيّام جزءا منّي ومن ذكرياتي، ست سنوات وهي تركض دون توقف، حملتني على ظهرها كما تحمل الفرس الأصيلة فارسا مقداما.. حملت همّي وقضيتي، قدّمت لقضيتنا الكبرى ما لم يقدّمه كثير من الأنصار المتحمسين، هي وحدها الشاهد الحقيقي على لقائي الأول بصليحة، وهي الشاهد الوحيد على تفاصيل هروبي واختفائي.

طلبت من سائق سيّارة الأجرة في البداية أن يسرع قليلا، لكنّني عدلت عن رأيي بعد خمس دقائق وطلبت منه أن يخفّض السرعة مبرّرا ذلك بضعف الرؤية في اللّيل، أمّا الحقيقية التي لم أقلها له، هي أنّه لا يجيد السياقة، والركوب مع أمثاله فيه خطر ومجازفة، كما طلبت منه في أن يطفئ المذياع ويريح أذني من أغنية الرّاي وموسيقاها الصاخبة.

يا إلهي، انقضت تسعة أعوام بالتمام والكمال، تسعة أعوام لم أدخل المدينة ليلا، شعرت ونحن نشقّ الطريق نحو باب القنطرة بأنّني أكتشف المدينة من جديد، وبأنّني أعثر على كنز ثمين أضعته منذ مدة.

يا للروعة والبهاء..

أعمدة الكهرباء تملأ الشوارع والسّاحات.. النّاس يتجوّلون فرادى وجماعات.. واجهات المحلاّت تغري بالتّسوّق.. لا أثر للكلاب المتشرّدة.. ذلك هو الفرق بين المدينة المدينة والمدينة الريف.. بين حيّ عتيق يسمّى باب القنطرة وحيٍّ حديث النشأة بعين سماره يحاول بالكاد أن يتخلّص من الأوحال.

يا للروعة،، يا للبهاء..

كادت الأعوام التسعة التي قضّيتها في منفاي الاختياري أن تنسيَني طفولتي وشبابي، صرت . أنا ابن المدينة . مثل أبناء القرى والأرياف أنبهر بالأضواء واهتزّ للزّخارف والزّركشات.. كدت أنسى أن المدينة أجمل ما تكون عليه في الليل.. كدت أنسى أن لمدينتي وجهين، وجه عاديّ يطلّ دوما من وراء نقاب شفّاف، تقابل به الغرباء والسيّاح وضيوف النهار، ووجه نيّر ساحر لا يراه إلاّ أهل الدّار والمحظوظون من المحارم والأقربين.

يا للروعة والبهاء.. وكأنّني أولد من جديد.

عندما اجتزنا جسر "سيدي راشد" واقتربنا من محطة القطار بباب القنطرة، أشعل السائق سيجارة ثم أشعل المذياع، فإذا بصوت هيام يونس ينطلق كالسّهم مخترقا كلّ الأزمنة والأمكنة، محدثا شروخا في القلب والذاكرة (ما باله لا يعلم.. لا يعلم.. يمرّ قرب بيتنا.. يمضي ولا يُسلِّم).

تذكرت وميس.. وميس التي فارقتها منذ ساعات فقط، وميس التي لم أرها ليلا منذ تسعة أعوام، فقرّرت على الفور أن أتوقّف عندها لحظات ثم أواصل طريقي إلى المستشفى الجامعي حيث أبي.

ما إن توقّفت السيّارة أمام باب القصر ونزلتُ حتّى فتح الحارس الباب ودعاني للدّخول وهو يقول: تفضل يا سيّدي، الأميرة في انتظارك

ـ في انتظاري !؟ ومن أخبرها بقدومي ؟

ـ للأميرة عيون يا سيّدي، تفضل

ـ حسنا..

اللّيل والقمر المنير وأضواء المصابيح، كلّ تلك الأشياء امتزجت يبعضها

البعض، فأضفت على حديقة القصر جوّا رومانسيا ساحرا.

كانت وميس واقفة «بين صخرتين تمثلان فيلين ضخمين يعود تاريخهما إلى العهد النوميدي الأول، يلتقي خرطوماهما المبرومان عند قبة تعلو رأسها..» كانت مصفّفة الشَّعر ترتدي قفطانا يتغيّر لونه بتغيّر ألوان الأضواء، زادها فتنة وإغراء، يخيّل للناظر أنّها لوحة فنية أو تمثال صخري.

لاحظت وميس عليّ الارتباك وقرأت في وجهي آيات الدهشة، فابتسمت وقالت: ها أنت أخيرا يا قمري المنير

قلت وأنا في ذهول تام: يا للروعة.. يا للبهاء من أيّ كوكب سقطتِ أيتها الحسناء ؟؟

. بل أية غيمة أو نجمة حجبتك عنّي كل هذه السنوات، في أي كوكب كنت تقيم؟ في المريخ؟

. المريخ !؟ ياه.. لهذه الكلمة في أذني وقع غريب.. إنّها تعيدني ثلاثين سنة إلى الوراء، تقولين المريخ !! تقصدين ؟؟

ابتسمت بسمة خفيفة، ثم مالت بخدها قليلا وقالت:

. أحرى بقمري المنير أن يسأل نفسه

حركتُ رأسي يمينا وشمالا، نظرت إلى الفيلين الحارسين.. إلى النيزك القريب من الحوض وإلى الصخور التي تشبه الفلين في شكلها الخارجي وقلت:

. أنا لا أصدق يا أميرة، لمَ أخفيت عنّي كلّ هذا الجمال طيلة هذه السنوات

ردّت بنبرة فيها عتاب وحسرة: بل أين أنت، وأين كنت طيلة هذه السنوات؟

تسعة أعوام من الانتظار

تسعة أعوام من الانشطار

كنّا دائما معا، جنبا إلى جنب، لا أسير إلاّ على إيقاع نبضاتك المتلهفة، ولا ترين الأشياء إلاّ بمنظاري..، لقاءاتنا تتجدد كلّ يوم، من السابعة صباحا إلى الخامسة مساء. لم أتخلّف يوما عن موعدي ولم تغيبي مرّة.. كنت دائما تتلهفين لرؤيتي، ما تلامس عجلات سيّارتي البنيّة أرضية محطّة بوالصّوف حتى تقفين شامخة في الرصيف مستقبلة باسمة.. لكنّنا بعد انقضاء النّهار كنّا نفترق، كنّا نحترق.. تعودين إلى قصرك في المساء، وأعود إلى منفاي الاختياري، إلى عين اسمارة.

كنت أظنّ أنّ هروبي مؤقت ومكوثي هناك مجرّد تمويه.. مجرّد حيلة أتخلّص بها من مراقبة العيون.. ما وضعت في الحسبان أبدا أن الوقت سيمتدّ، وأنّ المقام سيطول، وأنّني سأنزل من مرتبة ربّ الدّار إلى مرتبة الضّيف والجار، ألهذا الحد كنت مغفلا !! لمن أكتب الآن العزاء.. نعم إنني مخطئ.. أعترف. صورتك الجميلة أنستني غيابك.. شغلتني عنك.. كنت دائما أنظر إليك، إلى صورتك وأبتسم.. تصوّري حتّى زوجتي صليحة صارت تغار منك، تحسدك مثل كل النساء، لا تطيق النظر إلى صورتك ولا الحديث عنك، وصارت أيضا تخاف عليّ منك.

سنوات وأنا أتأمّل وجهك، وأنا أحكي، لم أنتبه أبدا لسكوتك، لم أشعر مرة أنّني أكلِّم طيفا لا يوجد إلاّ في خيالي وصورة معلّقة في إطار.. اسمك المنقوشُ في الذاكرة والقلب وفي الأوراق المبعثرة شغلني أيضا عنك.. أطفالي

جميعا يعرفون اسمك، يعرفون صورتك، ماضيك وكلّ الأسرار الأخرى.

وميس، مري خدّامك بالانصراف، فقد آن للقلب أن يخرج أثقاله ويبوح بالحب الكبير.

اهتزت وميس لهذه الجملة فحرّكت على الفور رأسها آمرة الجميع بالانصراف.

بعد لحظات من الصمت، اقتربت منّي، وضعت يديها في يديّ وجذبتني إليها، ثم أجلستني على كرسي خشبي ورثته عن أجدادها الأوّلين، أمّا هي فجلست على حافة الصخرة المربعة التي يتكئ عليها النيزك وقالت:

ما أسعدني الليلة يا قمري، كنتُ دائما أقرأ في عينيك آيات الحب الكبير، وكم كنت أتمنّى أن تتحوّل النظرات الحارقة إلى كلمات، ها نحن وحدنا، فدع قلبك يفصح، اصرخ إن شئت أو شئت فاهمس، إنّ جوارحي الآن كلّها مهيأة لاستقبال أمواجك، بح بما جئت من أجله..

في هذه اللحظات تذكّرت أبي وتذكّرت أنّي جئت من أجله لا من أجلها، وبسرعة خاطفة وقفت وأنا أقول:

اللّعنة عليك أيها الشيطان.. أنسيتني أبي.. اعذريني يا أميرة، أعدك أيتها العزيزة بجلسة مماثلة في القريب العاجل أمّا الآن فسأذهب فورا.

قالت وهي في غاية الاندهاش:

ـ ماذا حدث، إلى أين أنت ذاهب؟

ـ أبي في المستشفى، لا بد أن أذهب حالا

حركت رأسها مبدية تفهمها وقالت:

. حسنا. اذهب.. أراك لاحقا

ما إن وضعتُ رجليَّ في عتبة باب المستشفى الكبير، حتى شعرت بشيء غريب يدبّ في جسمي، تسارعت على إثره دقّات قلبي، وتملّكني خوف كبير، ومع كلّ خطوة أخطوها يتضاعف الخوف، إلى أن بلغ الخوف في نفسي ذروته، شعرت بعدها أنّ جزءا منّي انفصل عنّي وسبقني في المشي، أدركت على الفور أنّ الذي انفصل عنّي أهمّ بكثير ممّا بقي فيَّ، فانصرفت عن هذا المتبقي المهترئ، ولحقت بالهارب منّي وانغمست فيه، ثم طرنا معا مسرعين تاركين جسدا متعبا يسير وحده حاملا أوزار الدنيا.

في لحظة هاربة من الزمن، وفي أقل من رمشة عين اجتزنا الأسوار والأبواب، ولا أدري كيف وجدتُني واقفا عند رأس أبي المتمدّد على كنبة حديدية، على الفور شعر بوجودي.. فتح عينيه وحرّك رأسه، ثم اعتذر لي عن عدم تمكّنه من استقبالي واقفا، وقال مطمئنا إياي:

. الأمر لا يدعو للخوف أو القلق يا هلال.. إنّها نوبة عابرة ليس إلاّ،

. هل أنت متأكد يا أبي.. هل حقا أنت بخير.. تشعر أنّك بخير ؟

رفع يده اليمنى، تلمس وجهي وهو يقول:

. الأعمار بيد الله يا ابني، لكنّني أؤكد لك أنّني لن أموت قبل أن أرى حلمي أو بعضا منه يتحقق،

. أبي...

. أجل يا هلال حتى تبلغ المبتغى وبين يديك إحدى البطيختين أو كلاهما..

كل شيء بعد ذلك عاد إلى طبيعته، عادت روحي الزكيّة إلى جسدي

المتعب.. إلى الهيكل المهترئ الذي بالكاد وصل إلى قسم الإنعاش.
كان البهو المحاذي لقسم الإنعاش ممتلئا بالنّاس، أقارب، جيران، أصدقاء، ولولا أنيّ تخاطبت عن بعد مع أبي لظننت أن الأمر قد انتهى وأنّ أبي قد مات، أمّا والحال ما عشته قبل قليل والذي لا يصدقه غيري، فقد ابتسمت للجميع، قبّلت من قبّلت، وصافحت من صافحت، ثم اتجهت صوبا ناحية أمّي الحاجة كوثر الجالسة على حافة الرصيف الصغير وسط مجموعة من النساء، ما إن رأتني أختي راضية ذات الأربع والعشرين سنة حتى صاحت:
. ها هو هلال قد وصل.
على الفور قامت أمّي وهي تقول: أين أنت يا هلال.. لماذا تأخّرت؟
كانت معها لالا فاطمة أُمّ صديقي كمال، فقامت هي الأخرى مرحبة بي..
كانت السّاعة حوالي التّاسعة والنصف ليلا، وكنت آخر من التحق بالمستشفى، يا لها من ورطة.. ماذا أقول لأمّي؟ إنّها تعرف وميس وتسمع عنها، وتعرف أنّني واحد من معارفها القريبين منها منذ أن كنّا صغارا، لكنّها لا تعرف أنّ نار وميس التي أحرقت قلوب الأوّلين قد امتدّت إلى قلب ابنها العنيد، لا شكّ أنّ أمّي ستغضب غضبا شديدا لو علمت أنّ هذه المرأة اللّغز هي سبب تأخري، هل أكذب؟ وفجأة اهتديت إلى حيلة للهروب من الإجابة وهي مواجهة السؤال بسؤال فقلت:
. أين هو الآن ؟
حرّكت أمّي رأسها مشيرة إلى المكان، فنابت عنها أختي راضية:

. إنّه هنالك.. منذ ساعتين تقريبا

أرادت راضية أن تقول شيئا آخر فغلبتها الدموع، ابتلعت ما تبقى من الريق والكلمات وأدارت رأسها ناحية لالا فاطمة التي ابيضّ وجهها من الحزن وجفّت عيناها من الدموع- لقد بكت كثيرا خلال السنوات الماضية على فلذة كبدها الوحيد كمال المختطف قسرا.

كان عليَّ أن أكسر ذلك الصمت الممزوج بالحزن والدموع بسرعة، فقلت بنبرة المتأكد من كلامه:

. لا تقلقن رجاء، إنها مجرّد نوبة عابرة.. أؤكد لكم هذا

سألتني أمّي:

- ماذا تقول.. نوبة.. ماذا تعني نوبة.. من قال لك هذا ؟

في هذه الأثناء ارتفع صوت مزلاج الباب، فأدرنا جميعا رؤوسنا، وإذا برجل يرتدي مئزرا أبيض يفتح الباب ويهمّ بالخروج، فتوجّهت راضية ناحيتي قائلة: إنه الطّبيب الذي رافق أبي إلى غرفة الإنعاش اسأله اسأله يا هلال.. ما هي إلاّ رمشة عين حتّى كنت واقفا قبالته، معترضا طريقه

. اسمح لي دكتور، أنا ابن الحاج الطاهر، أعرف أنها نوبة عابرة ليس إلاّ ؟ أعرف أنه سيعود إلى البيت بعد قليل.. نعم أعرف، لكن لن يصدّقني أحد.. ينبغي أن تقول لهم أنت هذا الكلام.. أنت الوحيد الذي يثقون في كلامه الآن..

سوّى الطبيب نظّارته وقال بصوت منخفض:

. من أين جئت بهذه المعلومات ومن قال لك إنّه سيغادر بعد قليل؟ أنا

فقط من يقرّر في هذه المسألة، وأنا قرّرت أن يبيت اللّيلة عندنا.. لكن حالته فعلا ليست خطيرة وقد تأكدت من هذا قبل خمسة دقائق فقط، فمن أخبرك ؟

. ربما سأخبرك فيما بعد لكن الذي أرجوه منك الآن هو أن تطمئنهم، ألا ترى أن السّاحة عامرة بالنّاس.. إنّهم هنا من أجله.. كلمة واحدة منك ستعيد لهم الاطمئنان وربما سيغادرون إلى بيوتهم..

ابتسم الطبيب وقال:

. بل لا بدّ أن يغادروا يا أستاذ..

. هلال.. اسمي هلال

في هذه الأثناء اقتربت منّا أمّي ولالا فاطمة ومعهما أختي راضية، فاعتذر الطبيب بلطف وقال قبل أن يهمّ بالانصراف:

. من فضلكم حالة الحاج لا تبعث على الخوف، اطمئنوا سنقوم بدورنا على أحسن حال لكن أنتم ساعدونا، عودوا إلى بيوتكم

نظرت إليَّ أمّي نظرة المتشوّق لمعرفة المزيد، وبدا كأنّها بدأت تصدق ما قلته لها قبل مجيء الطبيب، أرادت أن تتكلّم ثمّ توقّفت، ففهمت أنّها تريد أن تراه، فقلت للطبيب:

. حسنا يا دكتور لكن هذه أمّي، دعها تراه ولو نصف ثانية ولو من بعيد

. آسف آسف جدا يا أستاذ هلال.. لا يمكن ذلك الآن..

ثمّ التفت نحو أمّي وقال لها: ألا تثقين في كلامي يا حاجة، قلت لكم إنّه بخير، فقط إنّه تحت المراقبة الطبية وسيظلّ طيلة هذه اللّيلة، يمكن رؤيته

غدا صباحا وربما سيعود معكم إلى البيت.. ثقوا تماما أنّنا سنقوم بواجبنا على أحسن وجه..

ما إن ذهب الدكتور حتّى التف الزوّار حولي.. وشيئا فشيئا كبرت الدائرة، وصرت أشبه بنقطة صغيرة بينهم..

سألني أحدهم: ماذا قال الطبيب

فردّ عليه آخر: يقول إنّه بخير وسيعود للبيت غدا

وقال ثالث: الشّافي هو الله يا جماعة.. ادعوا له

و قال رابع: الحاج الطاهر أبونا جميعا يا أخي هلال ونتمنى له كل الخير.. أطال الله في عمره

وقال خامس وسادس وسابع، ثم بدأت الأصوات تختلط في أذني، وبدا لي أنّني أغرق في تفاصيل هامشية، وكان لا بدّ من أن أضع نقطة وأنهي التّجمع فقلت:

ـ أشكركم كثيرا يا إخوتي.. مؤازرتكم لنا في هذه المحنة شيء لن أنساه أبدا.. إن الحاج إن شاء الله بخير، لكن الطبيب يفضّل أن يبقيه تحت المراقبة الطبيّة إلى غاية الصباح، لذا فقد طلب منّي، وأنا بدوري أطلب منكم العودة إلى بيوتكم، فإنّه لا يسمح بالبقاء هنا في هذه الساعة، أشكركم جميعا تصبحون على خير.

أبدى أخي فاتح رغبته في البقاء تحسبا لأي طارئ، فأكدتُ له أنّني لن أبرح المكان وعليهم أن يغادروا جميعا، وطلبت منه أن يكلّم صليحة في الهاتف ويخبرها بما حصل.

أمّا أخي الأكبر ماجد والموجود خارج الوطن فسنخبره عندما تتبيّن لنا حالة الوالد..

اللّيل ربيعي دافئ.. رقّاص الزمن يشير إلى العاشرة والنصف ليلا.. ذهبوا جميعا، وبقيت وجها لوجه مع وميس التي كانت تتكئ على حائط بأحد أركان البهو المحاذي لغرفة الإنعاش.. رأتْ كلّ النّاس ولم يرَها أحد، حتّى أنا لم أنتبه لوجودها قبل هذه اللّحظة.. اقتربت منها وقلت:

. كم هو صعب أن أرى والدي في حالة ضعف، وقد تعوّدت على رؤيته قويّا وصاحب هيبة..

فأشارت بإصبعها إلى صدري وقالت: هذا الشبل من ذاك الأسد

. أبي نسخة نادرة يا وميس وأنا لا أساوي ظفر أصبعه.. له قلب كبير يسع الجميع، كلّ النّاس يحبّونه

. وهل خلت الدنيا من محبّيك

. أبي رغم قوّته وقوّة شخصيته رجل مسالم ليس له أعداء، أمّا أنا فأعدائي كثيرون..

. لأنّك عنيد ولا تريد أن تتراجع خطوة إلى الوراء

. ربما..

. والنتيجة ؟

. النتيجة أني تعبت.. تعبت

. اعترف مرّة واحدة، وارفع الراية البيضاء

. أريد أن أرتاح قليلا

. تريد الانسحاب أم تريد استرجاع أنفاسك لمواصلة المشوار ؟
. نعم مشواري طويل... ما يزال طويلا
كانت وميس متّكئة على الحائط الأيسر لقسم الإنعاش أمّا أنا فكنت ما بين واقف وجالس على سور قصير، في موقع يسمح لي بأن أطلّ على أكثر من جسر وعلى العديد من الأحياء العتيقة.
في هذه الأثناء مرّت ريح خفيفة شعرتُ إثرها بنسمة تلامس خدّي فسألتها:
. وأنت أيّتها الأميرة، ألا تذهبين
نظرت إليّ نظرة استغراب، ثم حرّكت رأسها وقالت: يحرجك وجودي ؟
ردّها السريع أربكني، شعرت بأنّني ارتكبت خطأ فادحا في حقها، ورأيت أنّه من واجبي أن ألطف الجوّ بسرعة، وأعيد طرح السؤال بصورة مغايرة:
. لا شك أنّك متعبة يا عزيزتي.. ومن حقّك أن تأخذي قسطا من الراحة..،
قاطعتني على الفور وقالت بلهجة فيها شيء من العتاب
. لا يا عزيزي أنا لست متعبة على الإطلاق،
دون قصد منّي أدرت رأسي نحو الفضاءات الممتدّة باحثا عن ألطف العبارات، لكن جمال المدينة أنساني ما كنت أبحث عنه، أدخلني في عوالم رومانسية أخرى، رحت أتجوّل بعينيّ وأتفسح في الأحياء، يا ألله، إنها المرّة الأولى التي أرى فيها المدينة من هذا المكان، أعلى البنايات فيها هي صومعة مسجد الأمير عبد القادر ويليها مباشرة البرج الإداري لجامعة منتوري ذلك البرج الأوسكاري الرائع، فتحركت في نفسي غريزة الحب.. غريزة الغيرة،

ورحت أردد في صمت: إنها فعلا مدينة الدين والعلم والشعراء.. آه يا مدينة خبّأت بين صخورها أسرار الكون.. أه يا آسرة العشّاق ويا عروس المدن.. وكدت أغرق في تفاصيل الحب والغيرة لولا أنّ سؤال وميس رنّ في أذني ثانية:

. بجد يا هلال تريدني أن أذهب، تريد أن تجلس قليلا إلى أبيك ؟

. هو فعلا يريدني بجنبه الآن.. لكنّهم كما ترين لا يسمحون بذلك

. وماذا يدور برأسك ؟

. لقد فهمت ما يدور برأسي.. نعم إنّي أفكّر في طريقة أتسلّل بها إلى الداخل..

. سأتدبر الأمر،، سأساعدك في الوصول إليه والتخلّص منّي

. كفى أيّتها المجنونة.. ما هذا الهراء.. أتخلّص منك !! من نفسي

بقدر ما كانت هذه الجملة المقتضبة والمشحونة بالغضب عفوية وبسيطة، كانت صادقة وقوية ومؤثرة، شعرت على الفور أنّها بلغت منتهاها في نفس وميس التي احمرّ وجهها بعد اصفرار وأشرق بعد عبوس، وتحوّلت نظراتها الحائرة إلى نظرات حالمة، على الفور سألتني بلهجة أنثوية خالصة:

. هل فعلا تعتبرني جزءا منك ؟

. أو تشكين في قلبي يا أميرة ؟

. لا أدري.. أريد أن يطمئن قلبي

. لو وضعتِ رأسك على صدري واستمعت إلى دقّات قلبي، لما طرحت هذا السؤال.

امتلأت عيناها بالدمع.. تنهّدت ثم رفعت رأسها للسّماء وقالت:

. قبلت بزواجك من صليحة وندمت.. إنّها تحتل الجزء الأكبر من قلبك، والجزء الآخر المتبقي يوجد فيه أبوك وأمّك وربما آخرون لا أعرفهم، ها أنت تقضي لياليك، كلّ لياليك بعيدا عنّي ولا تسأل نفسك، وكم كنت في شوق إليك. ألف ليلة وليلة مرّت، كنتُ دائما أتجمّل.. أتعطّر.. أرتدي أبهى الملابس، لكنّك لم تأت، وها إنّك أخيرا تقبل في ليلة مقمرة.. ها إنّك تجازف.. تكسر كلّ قيود الخوف.. تتحدّى الموت.. ليتك فعلت ذلك من أجلي.. آه لو كنت تعلم يا قمري كم كنت سأفرح لو جازفت من أجلي، كم كنت سأسعد لو تحدّيتهم قبل هذا اليوم، لكنّك لم تفعل، وها أنت تفعلها الآن وتجازف ولكن من أجل السي الطاهر شفاه الله.

كان لهذه الكلمات أثر بالغ في نفسي، هل بلغ بها الحد أن تغار عليّ من أبي، ربما هي لا تريدني حبيبا وإنّما عبدا مملوكا.. تريدني لها فقط..، خطر ببالي أن أصفعها.. أن أركلها بقدمي.. أن أمسكها من شعرها وأمسح بها الأرض وكل الزوايا المظلمة والمؤلمة بالذاكرة والقلب.. أتراها نسيت كل الذي حدث وما يزال يحدث لي بسببها، لقد سجنتُ من أجلها وتعرّضت للموت من أجلها.. أتراها نسيت أنّني محاصر ومهدّد في حياتي من أجلها.

نعم فكرت في أن أصفعها، في أن أريها وجهي القبيح، فكّرت فكّرت لكنّ المكان الذي كنّا فيه حال دون تنفيذ ذلك.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة وخمسين دقيقة عندما أسندت وميس رأسها إلى شجرة زُبِرت حديثا، شجرة خالية من الأوراق والأغصان الطّرية، كانت

على هيئة تمثال يحكي آلام الإنسان، بينما كنت أنا متكئا على سور قصير يطلّ على الجهة الأخرى من الدنيا. كنت أنظر إليها حينا وإلى المدينة حينا آخر، وبعد طول تأمل تبيّن لي أنهما وجهان لامرأة واحدة،، لعذاب واحد. كانتا جميلتين وغامضتين في آن.

فجأة اهتز القلب وارتعش الجسم على وقع صوت عجلات سيّارة إسعاف وأضوائها، كان يجب عليّ أن أختفي حتى لا أتعرّض للتوبيخ بسبب وجودي بهذا المكان في هذا الوقت المتأخر.. لا يوجد مكان يسترني عن عيونهم إلاّ الشجرة.. وجدت نفسي مضطرا للاقتراب أكثر من ميس، وأنا أسوّي أطرافي للتستر، شعرت بحرارة تدبّ في جسمي جرّاء أنفاسها المتلاحقة، هي الأخرى شعرت بما شعرت به أنا.. فأغمضت عينيها مستسلمة لشريط أحلام وردية، بينما بقيت أنا أتأملها بعين، وأتابع ما يحدث هناك بالعين الأخرى.

توقفت سيارة الإسعاف بالقرب من باب غرفة الإنعاش، وعلى الفور فُتح الباب الخلفي ونزل ممرضان يحملان بينهما ناقلة يدوية على متنها شخص ممدّد وبسرعة دخلا.

ما هي إلاّ دقائق حتى عاد الممرضان وركبا في السيّارة لتنطلق بسرعة راجعة من حيث أتت.

يا لقلبي الضرير.. إنّه يحتجّ.. يريدني أن أظّل واقفا في مكاني، ولكن لا حيلة لي وقد انصرفت السيّارة ولم يعد هناك مبرر يشفع لنا بالاختفاء في بعضنا.. الممرضان هما وحدهما المذنبان، هما اللّذان عادا بسرعة وحرماك يا

أيها القلب من لذّة الاقتراب من النبضات، ومن لذّة الاختراق والاحتراق والذوبان في الأنفاس المتلاحقة.. لا يوجد مبرر واحد لبقائي هنا انصرافهما. قلب وميس أيضا يحتج.. عيناها تحتجان.. قرأت فيهما كلّ آيات الكبت، وكلّ آيات الحسرة.. يا ألله ماذا أفعل؟

شعرت وأنا أتراجع بخطواتي البطيئة إلى الوراء، وكأنني أدوس على قلبين ينبضان حبّا وينزفان دما..

حين استعادت وميس وعيها، اعتدلت في وقفتها وقالت: أما زلت تذكر لقاءنا الأوّل؟

سؤال أحالني مباشرة على شبابي وطفولتي وما قبلهما.. فتح أمام عينيّ سجلاّ حافلا بالذكريات الجميلة والحزينة.. تذكرت الشوارع والأزقة الضيقة . رحبة الصّوف . الجزارين . السويقة . الرصيف . باردو . درب السيدات . فوبور لامي . باب القنطرة "تذكرت المستشفى الكبير وصرخاتي الأولى.

. بالطبع أيّتها الأميرة أتذكّر ذلك اليوم جيدا.. أتذكر كلّ تفاصيله.. يا لها من مصادفة غريبة.. نعم هنا التقينا أوّل مرة، بهذا المستشفى الكبير، على هذه الربوة الشامخة.. وها نحن بعد أربعين سنة نلتقي في المكان نفسه.. إنّها الدنيا تتجدّد من خلالنا.. إنّها تستمدّ حياتها من حبّنا،، من طيشنا،، من عذاباتنا.. نعم أيّتها الحلوة في هذا المكان التقينا. كنت يومها أصرخ بملء رئتي وحنجرتي، وكنتِ قبالتي تنظرين، ومن حين لآخر تبتسمين.. كانت عيون النّاس مشدودة إليّ.. كانوا جميعا متلهّفين لرؤيتي، أمّا أنا فكنت مغمض العينين.. كنت أصرخ وأصرخ.. كانت دهشتي بحجم السماء.. لم

يكن سهلا عليّ أن أفتح عينيَّ دفعة واحدة وأنظر إليك.. كان حضورك قويا وأنوارك ساطعة.

قيل يا عزيزتي إنّ هلالا بزغ ليلتها وقيل وقيل، وقيل أيضا إنّني حين زالت دهشتي الأولى عطست عطسة ظمأى، ثم تشجّعت وفتحت عينيّ ورأيتك، كم كنت ساطعة.

تلك بداية رحلتي.. بداية قصتي معك.. كان عليّ قبل أن أبحر فيك أن أتوضّأ مرتين. مرة للصلاة وأخرى استعدادا لسفر طويل شاق.. أدركت بغريزتي وفطرتي أنه يتوجّب عليّ أيضا قبل أن أتلمّس وجهك أن أرفع رأسي وأحدّق في السماء.

لم نكن يومها بحاجة إلى كلمات ترسم أحاسيسنا أو تشرح نبضاتنا أو تحدد طموحاتنا، كانت الأحاسيس المتدفقة من نظراتنا تقول كلّ شيء بوضوح تام.

كنت يومها في غاية الأبهة والدلال.. كانت شروطك كثيرة، نبرة كلامك قاسية.. اشترطت عليَّ قبل انطلاق السّهم أن لا أستسلم للخوف مهما كانت الظروف، وأن لا يكفّ قلبي عن الخفقان، أن لا أبتعد عنك إلاّ بمقدار، أمّا أنا فكان لديّ شرط واحد، أن لا تستعيني بأعدائي عليّ.

رغم تخوّفي وافقتُ على كلّ الشروط، ولم تعترضي على شرطي الوحيد، كان صمتك إشارة لبداية الرحلة، وكان وقوفي عزما وتهيؤا.

ـ هل تشعر بالندم يا هلال ؟

ـ أنا متعب يا أميرة.. أنا متعب متعب.

8

كلّلت سنوات الدراسة بشهادة جامعية، كثيرا ما أحالت حامليها على البطالة والفراغ، كان أمامي خيارات متعددة، لكنّني فضّلت الالتحاق أولا بصفوف الجيش لأداء واجب الخدمة الوطنية، وكذلك فعل كمال المتخرّج من قسم الكيمياء..

وأنا أسلِّم بطاقة هويّتي للملازم صاحب النّجمة الصفراء في مكتب التسجيل قال لي:

. تريد أن تلتحق بالجيش ؟

. نعم، هذا ما جئت من أجله.. لقد أنهيت دراستي.. وليس أمامي فرصة للعمل..

. طيب.. أين تريد أن تبدأ حياتك العسكرية ؟

. معذرة.. لم أفهم سؤالك..

. لأيّ ثكنة تريد أن نوجّهك؟

. هل من حقّي أن أطلب أو أختار ؟

. بعض النّاس وأنت منهم محظوظون في هذه الدنيا.. هيّا قل لي أين تريد أن نوّجهك، في أيّ مكان تريد أن تؤدي التكوين الأساسي المشترك.. يعني التدريب الأوّلي.

. في هذه الحالة أفضّل أن أظلّ قريبا من الأهل، وإذا أمكن أن تجنبني الصحراء ومنطقة الغرب فسيكون الأمر رائعا.

. حسنا.. سيصلك الاستدعاء

عندما التقيت بكمال فيما بعد سألته إذا ما كان قد أعطيَ هو أيضا فرصة

الاختيار، فنفى ذلك واستغرب السؤال.

لم أصدق عيني وأنا أقرأ في الاستدعاء (عليك أن تلتحق بثكنة بني مسوس بالعاصمة يوم كذا وكذا، ومن حسن حظي وحظ صديقي كمال أنّه وجّه إلى مدينة البليدة وهي غير بعيدة عن العاصمة.

لم أجد صعوبة في التّأقلم مع رفقاء الدّفعة، ومع المحيط الأخضر، غير أن القلب ظلّ يحتجّ، ولولا إيماني العميق بواجب الخدمة، لفررت منذ اليوم الأول.

خمسة وعشرون يوما كانت كافية لربط علاقات جديدة مع شبان آخرين جاؤوا من مختلف جهات الوطن لأداء الواجب.. كانت كافية للوقوف على حقيقة الحياة داخل الثّكنات، الجميع سواسية، يرتدون زيّا واحدا من اللّباس ويأكلون نوعا واحدا من الطعام. باستثناء القيادات وأصحاب الرتب.

تعلّمت خلال هذه المدّة القصيرة أشياء كثيرة، حفظت أسماء الأسلحة المتنوعة، وطريقة استعمال بعضها، سمعت عن قرب مختلف اللّهجات الجزائرية، وأنا لحد الآن أضحك عندما أتذكر ذلك التلمساني وهو ينطق القاف ألفا فيقول لي: (يا لأسنطيني عندك آوآو) ويقصد يا قسنطيني عندك كوكاو. كذلك الجلفاوي نسبة إلى مدينة الجلفة وهو ينطق الغين قافا فيقول: (الشّمس ما تتقطّى بالقربال) أي لا نغطّي الشمس بالغربال.

وممّا تعلمته أيضا أن الفرد في الثكنة هو كائن ثكنيّ بامتياز، آلة مبرمجة على مصطلحات محدّدة، لا يتحرك إلاّ بأمر ولا يتوقّف إلاّ بأمر، بالأمر يأكل وبه ينام، فاقد لحريته لا يناقش شيئا ويفعل ما يؤمر به، له قانون خاص

ومصطلحات خاصة مثل (سر. قف. خلف در. يمين سر. انتبه. استعد. وضعية البطة. وضعية الرمي خذ . قدم سلاحك. نكب سلاحك.. استرح.. الخ)

خمسة وعشرون يوما في كلّ يوم نحيّي العلم الوطني مرّتين، مرّة في الصّباح إقرارا ببداية العمل، وأخرى في المساء عندما تنتهي ساعات العمل. وما بين صعود العلم وهبوطه دراسة في الأقسام، وسير منتظم في الساحات ورياضة ورمي بالرصاص وعقوبات جماعية.

فوجئت في اليوم السادس والعشرين، في حدود الساعة الخامسة مساء، حيث كنت في نادي الثكنة أتناول شيئا من الحليب والبسكويت بأحد الضّباط يدعوني باسمي ويطلب منّي مرافقته إلى مكتب المقدم بوبكر . قائد الثكنة . لأمر يخصّني..

ونحن في طريقنا إلى مكتب القائد سألت الملازم الأوّل عن الموضوع وعن الأمر الذي يخصني، فأقسم أنّه يجهل ذلك تماما.

كان أمام البناية ذات الطابقين حارسان، ما إن وصلنا حتّى قدّما التّحيّة للضّابط، فردّ عليهما بتحية مماثلة، وكذلك فعلت أنا.

دخل الملازم الأول فتبعته، وصعد في الدرج وأنا خلفه، ثم طرق باب أحد المكاتب ودخل، فدخلت معه. تبادل التحيّة مع كاتب القائد ثمّ طلب منه أن يخبره بوصولنا، فأخذ الكاتب السمّاعة وتكلّم معه، بعد دقيقة أو دقيقتين سمح لنا بالدخول.

ها نحن في مكتب قائد الثكنة المقدّم بوبكر فماذا يريد ؟؟

تحيّة الملازم الأوّل للمقدّم كانت حارة وغاية في الإتقان، وممّا زاد في جدّيتها أنّه ظلّ واقفا مستقيما برهة من الزمن، كان المقدّم أثناءها منشغلا بإمضاء بعض الأوراق التي كانت أمامه، وظلّ الضابط في الاستعداد إلى أن قام المقدّم من كرسيه وردّ عليه بنصف تحية ثم أمره بالاستراحة والانصراف. أمّا أنا الجندي الصغير المنبهر بالتحية، فقد سهوت عن تقديم التحيّة فبادرني بسؤاله:

. وأنت أيّها الجندي ألا تقدّم التحيّة؟

اصطنعت على الفور تحية حارة ووقفت في الاستعداد وأنا أقول:

. عفوا حضرات

وهو يهيئ نفسه للجلوس على الأريكة ابتسم، ثم طلب منّي أن أستريح وأن أجلس إلى جانبه.

كانت الأريكة بنية اللّون جميلة، لكنّني أحسست وأنا أجلس وكأنني أجلس على الشّوك، كنت مضطربا وفاقدا للتركيز، وقد بدا ذلك عليّ ممّا جعله يبادر بالقول:

. انس يا ولدي.. انس بسرعة بأنّك في مكتب قائد الثكنة.. أنت الآن في ضيافة أحد أقربائها.. لقد تلقيتُ منها رسالة مفصلة قبل يومين.. تحدّثتْ عنك بإعجاب كبير.. طلبت منّي أن أعيدك إلى مكانك الطبيعي.. ومكانك لا يكون إلاّ بالقرب منها.. وأنا بالطبع لا أملك إلاّ أن ألبّي طلباتها.. أنا مدين لأخي الشهيد، وهي ابنته الوحيدة، وصيته الوحيدة، لقد سهرتُ على راحتها منذ اللّحظات الأولى، بل منذ أن كانت في رحم

أمّها.. تابعت خطواتها خطوة خطوة.. إنها العهد الذي قطعته على نفسي، وسأظلّ في خدمتها ما حييت.

حاولت أن أستنتج من كلام المقدم ما يجعلني أفهم قصده فلم أفلح، فقلت له بصوت منخفض:

. عفوا حضرات.. لم أفهم شيئا..، من هذه التي يجب أن أكون قريبا منها؟

ابتسم القائد مرّة أخرى، ثم مسح بكفّه على رأسي بعد أن نزع قبّعتي وقال:

. وهل هناك غير وميس.. هل هناك غيرها ؟

. وميس ؟!

. نعم وميس، أعتقد أن وجودك هناك أحسن وأفيد من بقائك هنا.. هيّا أيّها الجندي عد إلى الشاليه.. احزم أمتعتك بهدوء وسيأتي غدا صباحا من يأخذك.

في اللّيل وأنا أحزم أمتعتي وأجمع أشيائي سألني بعض الزّملاء، فأخبرتهم بأنّ يدا انتشلتني من بينهم وألقت بي خارج أسوار الثكنة، فعلّق أحدهم بالقول:

. ليت هذه اليد تمتد إليّ.. ليتها.. والدي مريض ولم يعد قادرا على العمل وتحمّل أعباء البيت..

أمّا الشّاب الذي أسميناه "النيغاس" وهو من مدينة بجاية، فقال بعربية مصبوغة باللّهجة القبائلية:

. واش هذا يا لعرب، ديروا رأيكم فينا ذراع، هذي ما كانش هذي، نروحو قاع ولاّ نقعدو قاع.

في صبيحة اليوم السابع والعشرين جاءني أحد الضّباط وقادني على متن

سيّارة مدنية إلى المطار، وبعد أن قام بكلّ الإجراءات سلّمني تذكرة الركوب وكذا أوراق إعفائي من الخدمة الوطنية وبطاقة هويتي التي أخذوها منّي يوم التحاقي بالثكنة، وتمنّى لي سفرا ممتعا. وما هي إلاّ ساعات قليلة حتّى كنت بين أهلي.

لم تصدّق أمّي أنّني أعفيت من الخدمة نهائيا، حتّى أبي والجيران استغربوا الأمر، فأنا في كامل صحتي ولا شيء يدعو لإعفائي، حاولوا معرفة السبب الحقيقي، لكنّني أخفيت ذلك ولم أذكر وميس أمامهم تجنبا لكلّ ما من شأنه أن يدخل الشكّ في نفوسهم.

في اليوم الموالي زرت وميس في قصرها، رويت لها تفاصيل الحياة داخل الثكنة وشكرتها على فعلتها.. أطلعتني بدورها على بعض المستجدات ثم تحدّثنا في مواضيع مختلفة، وقبل أن نفترق سلّمتني قصاصة من جريدة تتضمن إعلانا نشرته جامعة قسنطينة تعرب فيه عن رغبتها في توظيف ثلاثة من حاملي الشهادة الجامعية، ونصحتني بإيداع ملف في أسرع وقت.

لم يكن أمامي خيار آخر غير إيداع ملف يتضمن كل الوثائق المطلوبة ثم الانتظار، ولو أنّني في أعماقي كنت شبه متأكد أنّ وميس قد رتبت شيئا ما وإلاّ ما كانت لتحدّد لي المصلحة والشخص بالضبط الذي أسلّمه الملف.

ما هي إلاّ أيّام فقط حتّى جاءني الاستدعاء للالتحاق بالعمل فورا.

فرحت أمّي كثيرا لهذا الخبر، وكذلك أبي الذي نصحني بالجدّية والالتزام في العمل وقد لخّص قوله في: هذه بداية حياة جديدة.. شدّ حزامك.

أمّا وميس فنصحتني بتجنب الحديث في السياسة طيلة مدة التربّص التي تتراوح من تسعة أشهر إلى سنة، وأيضا بعدم انتقاد المسؤولين مهما عظمت أخطاؤهم.

كان الأمر سهلا بالنسبة لي، اندمجت بسرعة في وظيفتي الجديدة، وفي ظرف وجيز استوعبت العمل، وما انتهت فترة التجريب حتى جاءني قرار الترسيم ومعه الترقية إلى منصب رئيس مصلحة.

عشرون سنة كاملة مرّت وما يزال كلام "المتنبي" يرنّ في أذني (إنكم ستختلفون)

أمام ضربات الامبريالية العالمية انهار الاتحاد السوفيتي، وانهار معه المعسكر الاشتراكي وكان على الجزائر أن تستوعب الدّرس، وأن تُطَلِّق الاشتراكية بالثلاث، وأن تتحوّل من دولة أحادية الحزب إلى دولة تسمح بالتعددية.

مباشرة بعد التصويت على الدستور الجديد والتي تسمح مادته الأربعون بإنشاءِ جمعيات ثقافية وسياسية سارعت مختلف الحساسيات إلى تقديم ملفاتها إلى وزارة الداخلية وطلب الاعتماد.

كما غيّر النّظام وجهته، غيّرنا نحن الشعراء جلساتنا من مقهى"الكأس الذهبي" بباب القنطرة إلى مقهى البوسفور بوسط المدينة، أمّا عدد الشعراء وهواة الأدب فقد ارتفع.

نحن النّواة ومن حولنا الغاوون. أحاديثنا.. أشعارنا.. كتاباتنا، كانت جريئة ينقصها التريّث وحماسيّة ينقصها التعقّل والتدّبر والحساب، لقد غرّتنا كثرتنا، صرنا أشبه ما نكون بالجماعة الضاغطة، لا ينتقدنا كاتب أو سياسي إلاّ

وتتهاطل عليه الردود في الجرائد من كلّ جانب.

كانت "الجبهة الإسلامية للإنقاذ (الفيس) تملأ الساحات بمناضليها، وكانت الجامعة في أوج الصراع وكانت قاعة المحاضرات هي الحلبة التي شهدت كل المنازلات، حوارات.. منتديات.. مناظرات، أمّا أنا فكنت منقسما بين كوني مسؤولا إداريا ومناضلا ثقافيا.

سنة واحدة كانت كافية للجبهة الإسلامية للاستحواذ على الشارع وترتيب كل شيء، فازت في الانتخابات المحلية الأولى، وفازت أيضا في الانتخابات البرلمانية التي تلتها فوزا ساحقا، أربك الحكومة والجيش وجزءا كبيرا من المعارضة، وصار من حقّها قانونيا أن تتسلّم مقاليد السلطة..

هل أخطأ "الفيس" بحصوله على تلك النسبة المرتفعة ؟

هل أخطأ الشعب بانتخابه الجبهة الإسلامية بدلا من جبهة التحرير أو الجبهة الاشتراكية ؟

وميس، أنت فقط تعرفين حقيقتي، تعرفين أنّني كنت صادقا في قولي، مخلصا في حبّي، تعرفين أنّني اخترت أدواري بنفسي، واخترت خندقي اقتناعا، لا طمعا في منصب أو تزلفا لأحد. الآن فقط فهمت لماذا كنتُ دائما أفشل في إقناعك بضرورة انخراطك معنا في مشروعنا الكبير، الآن فقط فهمت لماذا كنتِ دائما تنصحينني بالتريث، لقد كنت على دراية بالمؤامرة الكبرى، كنت تنظرين بعيون كثيرة، بينما كنت أنا أطلّ على الدنيا من نافذة واحدة، وأكلّم النّاس بكلام واضح ثابت، كنت تعرفين كلّ شيء، على علم بكلّ ما سيحدث، فلماذا لم تخبريني ؟

في نشرة أخبار الثامنة مساء طلع في الشاشة رئيس الجمهورية وهو يقدّم استقالته من منصبه، وكان واضحا أنّه أقيل بالقوة وأرغم على قراءة الاستقالة، وتبعا لذلك فقد تم توقيف المسار الانتخابي وبالتالي المسار الديمقراطي برمّته.

بعد ربع ساعة من الخبر جاءني"كمال" وهو في حالة ذهول:

. هلال هل سمعت الأخبار؟ الشاذلي استقال وألغيت نتائج الانتخابات البرلمانية

. بل أقالوه يا كمال، وصادروا إرادة الشعب

. وما العمل.. ماذا تتوقع ؟

. الله وحده يعرف ماذا سيحدث

كانت ليلة استثنائية، خرج فيها العسكر من ثكناته واحتل بدباباته مداخل المدينة، وخرج الشّعب جماعات جماعات، تظاهروا في الأزقّة والسّاحات وندّدوا بتوقيف المسار الانتخابي، ومن بين الهتاف الذي ارتفع عبر مكبر الصّوت: الجهاد الجهاد.

جاء في الجرائد التي صدرت في اليوم الموالي أنّ اشتباكات كثيرة وقعت بين قوّات حفظ الأمن وأنصار الفيس.. وتناقلت الأخبار سقوط قتلى في بعض المناطق..

ألم يقل "المتنبي" إنّنا على أبواب الفتنة الكبرى، وإنّه لا يفصلنا عنها سوى خطوة مجنونة.. ها حلّت الكارثة.. ها هم يدقّون أجراس الحرب الأهلية بتنحية الرّئيس، وها هم يفتحون على الشعب وعليهم أبواب جهنّم.

اعتاد النّادل في مقهى الكأس الذهبي أن يأتيني بحليب وكعك أوّلا ثم قهوة، لكن هذه المرة طلبت قهوة فقط، شربتها على عجل، ركبت سيّارتي، أدرت المفتاح وانطلقت صوب الجامعة.

كانت الجامعة على موعد بالصراع، منذ صبيحة اليوم الأوّل لتوقيف المسار تشكّلت لجنة مختلطة من الأسرة الجامعية، دعت إلى إضراب عام وشعارها (لا عمل لا تدريس حتى يرجع حق الفيس).

أسبوع مليء بالأحداث، مليء بالفوضى.. تظاهرات.. اشتباكات.. جرحى.. أصبحت الجزائر فجأة على صفيح ساخن، تنام على طلقات الرصاص وتصحو على أخبار الاغتيالات والاعتقالات، أمّا نحن الشعراء فلم نعد نلتقي يوميا كما جرت العادة، لقاءاتنا صارت متقطعة غير مستقرة. كان لزاما علينا أمام الشعب وأمام التاريخ أن نبرز موقفنا ممّا يجري، هذا الذي دفعني إلى إصدار بيان باسمي أنحاز فيه لإرادة الشعب رافضا للانقلاب العسكري.

دعيت بعد يومين إلى المشاركة في ندوة أقيمت بالجامعة عنوانها (الديمقراطية في الجزائر- واقع وأفاق)، شارك فيها إلى جانبي رئيس حزب سياسي علماني، وأستاذ من كلية الحقوق وصديقي رضا الذي أصبح أستاذ مادة الفلسفة بإحدى ثانويات المدينة.

كان موقفي من توقيف المسار واضحا منذ البداية، وكذلك موقف أستاذ الحقوق، لكن رئيس الحزب لم يوافق على رأينا، فحاول تبرير تدخّل الجيش بصفته حامي الجمهورية، أمّا رضا فقد بدا غامضا في موقفه متردّدا في

كلامه، وهذا ما جعله محلّ انتقاد أغلب المتدخّلين.

بعد الندوة ذهبت رفقة رضا إلى إحدى المقاهي المجاورة للجامعة، وأثناء حديثنا سألته عن الارتباك الذي ظهر عليه أثناء تدخله، فأجابني بما يعني أنّه تعمّد كلّ ذلك اتقاء شرّ الجهتين المتصارعتين.

ساحة الجامعة مكتظّة، وجوه مألوفة وأخرى جديدة لا علاقة لها بالجامعة، الكلّ يراقب الكلّ، أسبوع من تهديدات الإدارة، أسبوع من المناورات الخفيّة إلاّ أنّ الدراسة لم تنطلق، كلّ من يدخل مدرجا أو قاعة من القاعات يوصف بالخائن ويتلقّى الشتائم.

في اليوم العاشر من الإضراب، وأنا أَهُمُّ بالدخول إلى المصلحة وقد تأخرت قليلا، همس بيبي في أذني

. عليك أن تختفي حالا يا هلال

نظرت إليه نظرة استغراب وسألته:

. لماذا يا بيبي ؟

فردّ بصوت منخفض جدا:

. من حسن الحظّ أنّك تأخرت.. رجال الأمن يبحثون عنك،

. رجال الأمن !! لماذا؟ هل قالوا شيئا يا بيبي

. سألوا عنك ثم دخلوا عند المدير وبعدها عادوا إلى مصلحة الموظفين وأخذوا صورة شمسية من ملفك، أعتقد أنّ المسألة متعلّقة بالإضراب لا شك أنّهم سيعودون.. أنصحك بالاختفاء

. بدأت المتاعب إذًا

قبل أن أغادر طلبت من بيبي مفاتيح مسكنه الجديد الذي لم يسكنه بعد، لأبيت فيه مؤقتا، وحدّدت له موعد لقائنا في الخامسة مساء بمقهى البوسفور.. فسألني:

. ماذا تنوي فعله؟

. لا شيء سوى الاختباء بعض الوقت

. وأين ستخفي السيّارة؟

. سأجد لها مكانا آمنا..

كانت عيناي وأنا أبحث عن سيارتي التي نسيت من شدة اضطرابي أين ركّنتها تراقبان كلّ متحرك، تحوّلت ساحة الجامعة في عينيَّ فجأة إلى ساحة حرب، قد يكون ذلك الواقف أمام باب المكتبة مفتش شرطة.. إنّهم هنا.. ربما هناك.. يا إلهي ماذا أصابني.. إنني أرتعش.. ألهذا الحد أنا جبان.. ؟ ربما لأنّني لم أحسب لهذا الأمر حسابا ولم أهيئ نفسي كما يجب؟ يا أ الله أين هي السيّارة؟ أين تركتها.. ها هي.. أوف.. الحمد لله.

فتحت الباب بسرعة، سويتُ نفسي في المقعد، أدرت المفتاح ودون تلفّت أطلقتُ العنانَ للعجلات، انغمست بخيالي المضطرب في تفاصيل القضية.. في البحث عن أجوبة واضحة للأسئلة الكثيرة.. ماذا أقول لأبي وأمّي ؟ هل ستطول مدة اختفائي؟ هل أسلّم نفسي للشرطة ؟ ما هي تهمتي بالضبط ؟ أوه ينبغي أن أختفي وكفى.. كنت دائما أعتقد أن تهمتي وميس.. وميس فقط، الآن صارت وميس والفيس نعم إنّهما وجهان لتهمة واحدة، أو كما قال المتنبي لكمال: إنّهما عنوانان لتهمة جاهزة..

كانت يداي أثناء ذلك تديران المقود بطريقة آلية، وفجأة ارتسمت أمام عينيّ صورة "ربيع"، إنّه أكبر إخوته، يسكنون في فيلا محترمة بناها المرحوم والده، توجد في الجهة الأخرى من الفيلا مساحة شاسعة تصلح لتكون مخبئا للسيارة، فقرّرت أن أعرّج عليه.

كنت متأكدا أن ربيع لن يردّ طلبي، لكنّه من باب الحيطة نصحني بتسليمه المفاتيح وترك السيّارة في الشارع، ليتكفل هو بإدخالها في الوقت المناسب، أي حين تقلّ الحركة، وإذا لزم الأمر ليلا.

وأنا في طريقي إلى البيت رأيت صديقي قدور، صديقي الذي كان دائما يقف إلى صفّي، لقد جمعنا قسم الدراسة أكثر من عشر سنوات، من الطور الابتدائي إلى الثانوي، اختلفت الروايات في السّبب الذي جعله يفقد عقله منذ سنة تقريبا.. حدث ذلك بعد عودته من حاسي بحبح بالصحراء حيث كان يشتغل مع شركة إيطالية متعاقدة مع الشركة البترولية سوناطراك، لحد الآن نجهل ماذا حدث له.. كان في صحة جيدة وفجأة ودون مقدّمات فقد عقله، هل فعلا حدث ذلك بسبب مشاكل عائلية؟ هل لـ وميس دخل في المسألة ؟!!

كان قدور جالسا على حافة رصيف، كان مرتديا سروالا من نوع "الجين" وقميصا وسخا مشدودا إلى بعضه بزر واحد فقط، وكان يحمل في يد قطعة خبز يابسة، وفي الأخرى علبة "شمة" وجريدة.

عندما اقتربتُ منه توقّف عن الضحك، تأمّلني جيّدا ثم وقف بسرعة، ابتعد عنّي، كأنّه تذكّر شيئا أو خشي أن أمسك به، وراح يردد (فوق.. تحت..

فوق.. تحت.. أومبا.. هو.. أومبا.. هو.. تتزوجيني يا وميس.. طخ.. طخ. أومبا.. طخ أومبا.. هو. طخ.. أومبا.. وميس) ثم أجهش بالضحك والبكاء.

آلمني كثيرا أن أتركه في تلك الحال وأمضي، ماذا لو كنت مكانه؟ لو أفقد عقلي مثله ؟هل يتنكّر لي الأصدقاء؟ هل يتركونني أجوب الشوارع حافيَ القدمين؟ هل يسترون عورتي وينظّفون ملابسي ويقدّمون لي طعاما ساخنا ؟ أم أنّهم يتألمون لحالي كما أفعل أنا الآن، ثم يذهبون وأبقى وحدي تماما كما هو قدور ؟

فجأة اختفى قدور وضحكاته، مشيت والأسى يملأ قلبي، ميؤوس منه ولا يمكن بحال أن يعود لعقله، أخذناه أكثر من مرة إلى مستشفى الأمراض العقلية للعلاج، لكنّهم دائما يسرّحونه بعد يوم أو يومين على الأكثر ويقولون مكانه ليس هنا.

حين تأكدت من خلو المكان تماما من رجال الأمن والعيون المراقبة دخلت إلى البيت مسرعا، أخبرت والدي بالمستجدات، ثم أخبرتهما بنيتي في الاختباء والمبيت في مكان آخر إلى أن تهدأ الأمور، عارضت أمّي في البداية وأبدت خوفا شديدا لكن أبي ردّ عليها بقوله:

. هلال ليس طفلا يا حاجة، فلا تبالغي في خوفك عليه

ثم التفت إليّ وقال:الشجاعة وحدها لا تكفي يا هلال، مفتاح نجاحك ونجاتك هو الصدق، لا تدع الأخطاء تتراكم.. راجع نفسك باستمرار.

وأنا أَهُمُّ بالخروج مسحتْ أمّي دموعها،، قبّلتني وقالت:

. الهاتف موجود.. روح يا وليدي، يحرسك الله ودعوة الوالدين.

في الساعة الخامسة بالضبط دخلت مقهى البوسفور، وجدت بيبي جالسا ينتظرني، جلست إلى جانبه وطلبت قهوة.

. هل هناك جديد يا بيبي ؟

. لا جديد.. لكن كلّ شيء ينذر بالسيئ

. هل أحضرت الأمانة ؟

أخرج يده من جيبه ودسّ المفاتيح في جيبي بصورة متخفّية جدا وهو يقول: احذر.

تبيَّن لي بعد يومين من المبيت في مسكن بيبي أنّ المكان غير مناسب، عيون النّاس بتلك العمارة تراقب الداخل والخارج ليلا ونهارا.. لذلك أرجعت له المفاتيح وفي نيتي أن آخذ مفاتيح مسكن كمال المهجور منذ مدة.

كمال، صديق طفولة وزميل دراسة، ثم زميلي في العمل. بعد تخرجه بشهادة جامعية من معهد الكيمياء التحق مثلي بالجيش لأداء الخدمة الوطنية.

بعد خروجه من الجيش أرسل عدّة طلبات للتوظيف، لكن دون جدوى، فظلّ بطالا مدة سنتين، اضطر بعدها للعمل في أحد الفنادق بوسط المدينة، لكن سمعة الفندق السيئة وسيرة صاحبه جعلته بعد شهرين فقط من العمل يتركه. اشتغل بعدها خبازا ثم سائق سيارة أجرة، إلى أن تمكنتُ في الأخير بمساعدة وميس من توظيفه بالجامعة.

ترك والد كمال السّيد رجم لزوجته لا لا فاطمة بعد وفاته مسكنا جديدا ذي . ثلاث غرف في عمارة بحي" الزيادية" بالقرب من جبل الوحش في

أعالي قسنطينة، كان ينوي أن ينتقل إليه بعد تقاعده ويقضي فيه بقية العمر.. لكن الموت استعجله وأخذه إلى الدار الباقية..

كان كمال يومئذ شابا يافعا لا يتجاوز عمره العشرين سنة، لم يكن لهما من دخل سوى منحة تقاعد والده التي تتقاضاها أمّه لالا فاطمة شهريا، أمّا عمّه سلطان فكان لا يتذكرهم إلاّ في المناسبات والأعياد.

كلّ الأشياء في البيت تذكر لالا فاطمة بالسيّد رجم، إنّها تشمّ رائحته في الكراسي في الكنبة في ربطة العنق، ظلّت تحتفظ ببدلاته وببعض أشيائه.. كلّ ما في الدّار يذكّرها به، لهذا فهي ترفض أن تنتقل إلى المسكن الجديد.. تفضّل أن تدفع أجرة الكراء المكلفة بالنسبة لها على أن تترك ذكرياتها الغالية، أمّا شقة "الزيادية" فيسكنها كمال حين يكبر ويتزوج.. هكذا ظلّت تردّد..

ظلّ المسكن مغلقا، لا يحظى بزيارة كمال إلاّ نادرا، وقد رافقته مرة.. قضينا اللّيلة ساهرين، استرجعنا فيها ذكريات الصبا وحماقات المراهقة.

أخبرت كمال بنيتي في المبيت هناك فأحضر المفاتيح وهو يقول:

ـ تجنّب الذهاب إليه نهارا قدر المستطاع.. إذا حدث لا قدّر الله واكتشف الأمن المكان وسألوك، قل إنّك سرقت منّي المفاتيح واستنسخت عنها،.. اتفقنا ؟

ـ اتفقنا.

أسبوع وأنا أنتقل من مكان إلى مكان.. من مقهى إلى مقهى، أراقب الجميع، ويراودني شعور بأنّ الجميع يراقبني. كم هو صعب على المرء أن

يعيش بوعي تام حالة هروب دائمة، إنّني أدور في حلقة مغلقة، إنّني متحرك باستمرار لكن دائما في إطار محدّد أشبه ما يكون بالسجن الكبير.

على وتيرة الهروب رتبت وقتي، أخرج من مسكن الزيادية صباحا قاصدا مكتبي بالجامعة، أقضي هناك ساعة أو ساعتين على الأكثر، أقوم خلالها بأعمال لافتة للانتباه مسجلا بذلك حضوري، وبعدها أختفي.. أهيم في الأرض، من حيّ إلى حيّ، ومن مقهى إلى مقهى، إلى أن يقترب المغرب وتبدأ خيوط اللّيل في الانتشار، فأقفل راجعا إلى مسكن الزيادية ومعي حزمة من الجرائد وما يلزمني من الأكل.

عرفت خلال هذه المدّة أزقّة وأحياء لم أكن أعرفها من قبل، لقد توسعت المدينة بشكل كبير لكن بطريقة فوضوية، أحياء قصديرية إلى جانبها فِلل راقية جدا، أحياء أخرى كلها عمارات في شكل هندسيّ واحد وكأنها علب كبريت غرست في الأرض، أحياء أخرى تفتقر لأدنى شروط الحياة، الماء ينقل إليهم في الصهاريج.. أسلاك الكهرباء عابرة للأحياء، ومع هذا تجدها عامرة بالنّاس وتحمل أسماء برّاقة مثل حيّ العرسان وحيّ نيويورك.

كان زملائي في العمل على درجة كبيرة من التضامن، نابوا عنّي في كلّ شيء، أمّا المدير فكان متواطئا بسكوته، كان على دراية بتحرّكاتي، لكنّه يتظاهر بعكس ذلك، يأتي من حين إلى آخر إلى المصلحة ويسأل عنّي، ثم يترك الزملاء يجتهدون في تبرير غيابي، وبعدها يخرج متظاهرا بتصديقهم.

يقع مسكن الزيادية في الطابق الثاني يسارا بالعمارة "س" في شارع أطلقوا

عليه اسم "نهج العافية"، وكان اسما على مسمى، فأنا مذ دخلته لم أشعر بخوف.

لم يكن لديّ ما أشغل به نفسي إلاّ تصفح الجرائد أو قراءة الكتب المرصوصة في رفّ طاولة التلفاز، وهي على قلّتها كتب نفيسة جديرة بالقراءة، لكن كمال فيما أعتقد وضعها للزّينة لا لقيمتها الدينية أو العلمية، فهي مجلّدات عناوينها برّاقة مخطوطة بالماء الذهبي، أمّا التلفاز فلا يلتقط إلاّ القناة الأرضية، ولا أدري من أطلق عليها تسمية "اليتيمة" لذا فعلاقتي بها تقتصر فقط على متابعة نشرة الأخبار في الساعة الثامنة ليلا.

في اليوم الرابع، وبعد تسجيل الحضور كالمعتاد، غادرت الجامعة بحذر شديد.

وأنا أجلس في المقعد الخلفي داخل سيّارة الأجرة قابلتني ساعة إلكترونية أشارت أرقامها إلى التاسعة صباحا، بعد لحظات فتح الباب شابان وجلسا بجنبي في الخلف تاركين المقعد الأمامي لسيّدة كانت واقفة أمام الباب، بعد ركوبهم انطلقت السيّارة ومعها انطلق المذياع، وبدأ المذيع عبر نشرة الأخبار في سرد جملة من الحوادث والصدامات بين عناصر الأمن وأنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ، في مختلف جهات الوطن، وممّا جاء في النّشرة أنّ الشّرطة استعملت في تدخلها الرصاص المطاطي والقنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين، وهنا بدأت تعليقات الرّكاب وكذلك سائق السيّارة حول ما يجري، لكنّني التزمت السكوت.

بعد ربع ساعة وصلنا إلى وسط المدينة، كان الرصيف بنهج الأقواس على

غير العادة خاليا من المارة، عامرا بالشّرطة وبرجال الأمن بلباسهم المدني، توقّفت السيّارة في الجهة اليمنى بمحاذاة الأقواس في آخر النهج فنزلنا جميعا، ذهبت السيدة من جهة اليمين وذهب الشابان في الجهة المعاكسة، وبقيت أنا واقفا والأسئلة تدور برأسي، لقد أخذوا صورتي، وهذا مكان توقف سيّارات الأجرة القادمة من الجامعة، يعني قد يعرفني أحدهم من الوهلة الأولى، كان أحرى بي أن أنزل قبل الوصول إلى هذا المكان، ماذا لو طلب منّي أحدهم إظهار بطاقة هويتي؟ هل أقدّمها له، أم أطلق ساقيَ للرّيح؟ بسرعة تداركت الأمر وتظاهرت بعدم الارتباك، وحتّى لا ألفت الانتباه رحت أسير بتأنّ وأنا أردّد في سرّي "اللّهم اجعل من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا ".

أقامت الشرطة عند مدخل جسر "سيدي راشد" غير بعيد عن نهج الأقواس حاجزا أمنيّا، بمجرّد اقترابي منه عاودني الارتباك وشعرت أن خطواتي بدأت تخونني، كدت أتعثر.. وفجأة ارتفعت الأصوات دفعة واحدة، وانطلقت القوافل البشرية من "السويقة " وهو الحي العتيق المحاذي للجسر. إنّهم أنصار الجبهة الإسلامية.

في دقائق، اختلط كلّ شيء وعمّت الفوضى، وبدأت الحجارة والزجاجات الحارقة تتساقط من كلّ مكان، ممّا جعل الشرطة ورجال الأمن يتراجعون إلى الخلف ويطلقون الرصاص المطاطي، ورأيت الدّخان بعد ذلك يتصاعد من جرّاء حرق عجلات السيّارات.

تمكّنت في هذه الأثناء من العبور إلى الجهة الأخرى حيث أنصار الجبهة،

من هناك وعبر"السويقة" ثم "طريق جديدة" إلى"باب القنطرة" ومباشرة من باب القنطرة وفي سيّارة أجرة إلى حي "سيدي مبروك" حيث الهدوء، وظللت هناك حتىّ اقترب المغرب، فأخذت طريقي راجلا إلى المسكن بحيّ "الزيادية" وهو لا يبعد عن سيدي مبروك سوى بنصف ساعة مشيا على الأقدام.

في اللّيلة الرابعة وبعد العَشاء والعِشاء وغسل بعض الأواني الخفيفة أعدت تصفّح ما كنت تصفّحته من جرائد، ثم أخذت مجلّدا من الرفّ ورحت أطالع الفهرس، لعلّي أجد عنوانا يهمّني أو موضوعا يستفزني، وأنا أقلّب الصفحات الأخيرة من المجلّد سقطت ورقة على الأرض، ورقة صفراء مطوية تظهَر على وجهها الخلفي بعضُ الخدوش، قد تكون رسالة خاصة جدا، أو ربما وصية، أو أمرا لا يحبّ كمال أن يطّلع عليه أحد، بدا لي أن قراءتها خيانة للأمانة، فتردّدتُ في فتحها، أرجعتها إلى حيث كانت بين صفحات المجلّد، وواصلت قراءة الفهرس. وبعدها تذكرت أن لِـكمال محاولات شعرية، كان دائما يتمنّى أن يستقيم عوده في الكتابة، يتمنى أن يكتب ولو قصيدة واحدة تنال رضاي، فكّرت في الأمر قليلا ثم فتحتها، فإذا بالعنوان يصفعني ويلقي بي في جبّ سحيق ليس له قرار. إنها رسالة موجهة إلى ميس أنقلها كما هي دون إضافة أو نقصان:

من المحبّ المغرر به كمال إلى مقبرة المحبّين وميس

اسمحي لي في البدء أن أتنهّد بحرقة.. أعترف أن الكتابة فضيحة الرجال.. وأن الكتابة إليك أو فيك مجازفة كبرى، قد تكلّفني عمري.

فكّرت كثيرا قبل أن أرفع هذا القلم ـ الخنجر ـ وأخطّ اسمك على ورقة بيضاء

تشبه الكفن. لكنّني في الأخير تشجّعت وكتبت اسمك ولم أستطع بعدها أن أضيف شيئا، فرميت الورقة جانبا وبكيت.

ها أنا أتشجّع مرة أخرى، أتحدّى الرعشة وأكتب اسمك على ورقة بيضاء بها خطوط زرقاء باهتة أفقية وأخرى عمودية تشكل بتداخلها في بعضها مربعات صغيرة، كأنها زنزانات مترادفة متراصفة عددها بحجم هذه الورقة وبحجم المعاناة.

اسمحي لي في هذا المقام أن أقارن بين الحكم بالإعدام في الورقة الكفن، وبين الحكم بالسجن المؤبد وما ترمز إليه المربعات-الزنزانات-، لا تخشيْ شيئا عزيزتي، إنّني أمزح.. مجرّد مزحة، لأنّ حكمي سيكون ابتدائيا، أمّا الحكم النهائي سيتولّى النطق به غيري، أعرف وتعرفين أنّني سأمنحك البراءة وأحكم على نفسي بإحدى العقوبتين.. لكن اسمحي لي قبل أن أصل إلى مرحلة الحكم على هذا القلب الضرير أن أسجّل هذه الشهادات:

* لا توجد امرأة فوق الأرض أو تحت الأرض، في البحر أو في كوكب المريخ تستطيع أن تحافظ على رشاقتها ورواء جمالها عصورا وعصورا إلاّ أنت.

* لا توجد امرأة تستطيع أن تغرز أظافرها وأنيابها في قلب طفل صغير ولا يقول أح إلاّ أنت.

* لا توجد امرأة تستطيع أن تكون الصيّاد والطعم والفريسة في وقت واحد إلاّ أنت.

كل محبّيك يعرفون هذا يا عزيزتي وميس، لكنّهم لم يكفّوا، ما زالوا جميعا يتسابقون للاحتراق فيك، تماما كالفراشة تدور حول المصباح حتى الفناء.

اسمحي لي أن أعزّي نفسي فيك، لأنّني أدركت بعد فوات الأوان أنّك لن تكوني لي، كنتُ مجرّد لعبة بين يديك.. مجرّد جندي صغير تبتسمين له من حين لآخر ليتشجع أكثر، ليقاتل دفاعا عنك.. ليموت من أجلك أكثر، كنتُ مجرّد طفل تمنحينه قطعا من الحلوى ليكفّ عن البكاء، لقد أدركت كلّ هذا بعد فوات الأوان فكيف أتخلّص منك ؟

هل ألقي بنفسي من الجسر ؟

هل أطعنك يوم الاحتفال وأسلّم نفسي للشرطة ؟

لا أدري إن كان القاضي سيعفو عنّي حين يدرك أنيّ قتلتك كي أنقذك منك وأنقذ آلاف المحبّين!؟ أم أنّه سيقسو أكثر ويضيف للعقوبة التشهير ؟

هل أطعن صديقي هلال بخنجر مسموم كي يخلو لي وجهك؟ ! لا، لن أفعلها.

لكلّ ما سبق، قرّرت العفو عنك وعنّي، وحكمت علينا بالصمت الأبدي، سأحرق كلّ الصور، وكلّ رسائلنا الأخرى، وحين يتم الحرق ويصبح ماضينا رمادا، سأغيّر اسمي وأغيّر عنواني..

هذا ما أملاه ضميري... وداعا

ملاحظة: سأحتفظ بنسخة من هذه الرسالة، أرجو أن لا تنزع منّي يوم دفني، أحبّ أن تكون أنيسي في القبر، وتكون شاهدة عليَّ يوم القيامة.

الإمضاء: كمال–بتاريخ الثلاثاء 15 فيفري1992

قرأت الرسالة مرة ثانية ثم طويتها وأرجعتها إلى مكانها بين صفحات المجلّد البنّي. استلقيت بعدها في السرير ورحت أفكر في هذا الصّديق العزيز الذي

احترق هو الآخر بنار وميس دون أن يتفطّن إليه أحد، لقد كان أكثر الأصدقاء ثرثرة وتنكيتا، يتحدّث في كلّ شيء، حتى أمّه لالا فاطمة كانت تقول: "قلب كمال في لسانه"، فكيف استطاع أن يتكتّم في هذا الأمر طوال هذه المدّة؟ كيف!

أعترف لك يا كمال بالمهارة في التمثيل وأعترف أنّ هذه الرسالة هي أجمل قصيدة كتبتها..

9 عندما رفعت رأسي ونظرت إلى وميس كانت الساعة تشير إلى منتصف اللّيل وعشرين دقيقة، كانت هي الأخرى مطرقة تفكّر، واستجابة لنظراتي رفعت رأسها، فإذا بعليّ وقدور وكمال يتحوّلون إلى كائنات صغيرة.. رأيتهم جميعا يسبحون في بركة الدموع التي تجمعت بين جفنيها.. وحين امتلأ الحوض وفاض، سقطوا الواحد تلو الآخر، راسمين على خديها خطوطا مستقيمة شفافة، وما بين الأنف والشفة العليا رسمت الدموع علامة استفهام.

انتبهت وميس لدهشتي فابتسمت ابتسامة مجروحة وسألتني:

. هل يستطيع المحبُّ أن لا يغار على حبيبه؟

وضعتُ يدي على كتفها وقلت:

. إذا كان صادقا في حبّه فلا يملك إلاّ أن يغار

. ألا يستطيع أن يتخلّص من غيرته أو يخفّف من حدّتها؟

أجبتها دون تفكير: الغيرة فطرة فينا، فإذا افتقدناها افتقدنا إنسانيتنا وصرنا خنازير.

ابتهجت لإجابتي وقالت:

. إذًا ستعذرني على كلّ ما بدر منّي..

. ماذا تقصدين؟

صوّبت سهام عينيها جيّدا نحو عينيّ وقالت:

. كنتَ في شبابك تحبّ السّفر، وكنتُ أخاف عليك.. أخاف عليك من جنيّات البرّ والبحر، كنت أذوّب في الماء أقراصي أو بالأحرى حبّات سمومي

التي لا تقتل ثم أناولك الكأس، وكم كنت تستلذ مائي، كنتَ تغفو بين يديّ كطفل وديع، وحين تنام تماما أشقُّ صدرك بأظافري، أُخرِجُ قلبك الصغير الطريَّ وأفعل ما أريد، لم يتفطن أحد لذلك، ولا حتّى أنت، كلّ ما يعرفه النّاس عنك أنّك فظ غليظ، لا تبتسم لبنات حواء، ولا تعبأ بسهامهن.. كثيرات هنّ اللّواتي فكّرن فيك، كِدنَ لك حاولن التقرّب منك،، لكن كلّ محاولاتهن باءت بالفشل.. هل تدري يا عزيزي لماذا.. لأنك كنتَ هناك وقلبك عندي.

فجأة وبشيء من الذعر توقفت عن الكلام والتفتت إلى الخلف وهي شبه مذعورة،

. ما بك يا وميس.. هل هناك شيء ؟ هل ترين شيئا لا أراه ؟

ردّت بسرعة وهي تصطنع الهدوء:

. لا شيء.. لا شيء..

. وميس..

. قلت لك لا شيء.. إنّه مجرّد توهم، تخيّلات ليس إلاّ.. أحسست وكأّن خفّاشا كبيرا أراد أن ينقضّ علينا.. صدّقني إنّه مجرّد توهم ليس إلاّ.

. خفاّش !؟

. أوه دعنا من هذا... لنعد إلى ما كنّا نتحدث فيه.

. إلى طفل يسافر دون القلب ؟

. بل إلى الفطرة الإنسانية السامية.. الغيرة

. أه.. الغيرة.. نعم، أنا أيضا كنت ومازلت أغار، مازلت أغار عليك من

ذلك الرجل الضخم.. لا أدري لماذا كلّما حدّقت في عينيك جيّدا رأيته، ورأيتُ أناسا لا أعرفهم وصورا وبنايات قديمة.. سألتك أكثر من مرّة، لكنّك كنتِ دائما تتهربين من الإجابة بذكاء وتغيّرين مجرى الحديث.. كنت دائما تراوغين عنادي بجملة جاهزة (لا يوجد في بؤبؤ العينين غيرك). هذه الجملة كانت بمثابة القرص المهدئ للأعصاب.. كم من مرة غضبتُ، وكم من مرّة أسْكَتَ قرصُك السحريّ غضبي.. لكنّه قرص مسكّن فقط لا يقضي على الشكوك ولا يزيل المخاوف.. صعب أن أصدّقك يا وميس.. ذعرك قبل قليل يزيد من مخاوفي ويؤجج شكوكي.. نعم إني أغار، غيرتي أصبحت مع مرور الأيام قطعة من نار وكومة من حقد.. أرجوك أخبريني لماذا تخبئين في عينيك صورة الرجل الضخم؟ أجيبيني قبل أن أنفجر كالبركان.

10

بعد أسبوع من الاختفاء ها هو المدير يقف عند رأسي:

. السلام عليكم

. وعليكم السلام أهلا أستاذ

نظر في ساعته، ثم حدّق فيّ وقال:

. كنت متأكدا أنك موجود.. كيف أحوالك؟

. بخير إن شاء الله

نظر إليَّ نظرة العارف بكل شيء وقال:

. تعال معي إلى المكتب،

بمجرد دخولنا إلى المكتب، أخرج من جيبه ورقة صغيرة وسلّمني إيّاها وهو يقول:

. كُلّفتُ بتسليمك هذا الاستدعاء شخصيا، هو من الشرطة.. يبدو أنّك متّهم رفقة آخرين بتشكيل اللّجنة الجامعية لمتابعة الإضراب، لا أريد أن أخوض معك في هذه المسألة، لكن الأفضل أن تذهب إليهم، لأنّ عدم الاستجابة يعتبر تأكيدا للتهمة.

بدا عليَّ بعض الارتباك، لكن أكدتُ له أنّني سأذهب

كان زملائي في المصلحة يترقّبون خروجي من مكتب المدير، ما إن رأوني حتّى سألوني:

. هل هناك جديد ؟

قلت لهم وأنا ألوّح بالورقة الصغيرة:

. الجديد هو هذا، استدعاء من الشرطة.. حسنا.. سأذهب إليهم بنفسي،

إذا عدتُ وذلك ما أتمنّاه فلكم عليَّ غداء في أرقى مطعم، أمّا إذا احتجزوني وهذا محتمل، فإنّني أوصيكم بتفقد والديَّ والتخفيف عنهما، وأوصيكم بالمصلحة، دعواتكم يا جماعة

دفع يوسف كرسيه إلى الوراء ثم وقف وهو يقول:

ـ لا تهوِّل الأمر يا هلال.. تفاءل خيرا.

أمّا كمال والسيدة ودليلة فلم ينبسا ببنت شفة.

فكّرت وأنا في طريقي إلى سيّارة الأجرة في اللّجنة الجامعية لمتابعة الإضراب، هذه اللّجنة التي تشكّلت في صبيحة اليوم الموالي لتوقيف المسار الانتخابي، وعلى الفور تذكّرت أستاذا كان يحضر لقاءاتنا ولا يتدخّل، ولقد كان محلّ ريب عند البعض، إذ لم يكن يهتم بالشأن السياسي والشأن العام من قبل وأنا الآن شبه متأكد أنّه هو من سلّم أسماءنا للأمن، وما من شك أنّ كلّ أعضاء اللّجنة هم الآن إمّا في قبضة الشرطة أو في حالة فرار.

الساعة العاشرة صباحا.. السماء كعيون النّاس ملبّدة بالغيوم.. شعرت وأنا أنزل من سيّارة الأجرة بوسط المدينة أن عرقا باردا يتصبّب من جبيني.. هل أذهب الآن ؟ فكّرت قليلا، ثم بدا لي أن أتوجّه أولا إلى أقرب مسجد، أتوضأ وأصلّي ركعتين وبعدها أذهب.

على الرغم من أنّ المسجد لم يكن قد فتحت أبوابه بعد، إلاّ أن الميضأة تُرِكت مفتوحة، وكان أمام باب المسجد حصير وزرابي لمن أراد أن يقضي صلاة متخلفة أو ينفّل.

بعدما صليت الركعتين توجهت نحو الرفوف حيث حذائي، فإذا بعصام

يقف قبالتي مبتسما:

. تقبل الله

. آمين.. أهلا عصام!! كيف أحوالك.. ماذا تفعل هنا في هذا الوقت،

. أنا بخير، وأنت ؟

. تريد الحقيقة.. الأمور ليست بخير.. لديَّ استدعاء من الشرطة يا عصام، ولا أدري ماذا يريدون..

. يريدونها حربا يا هلال.. ألم تفهموا بعد

. حرب؟ !

. طبعا، وهل تعتقد أنّك ستنجو؟ أكيد سيضعونك في السجن

. لماذا ؟

. لأنّك مشوّش، لأنّك تشارك في الإضراب وفي المسيرات وفي غلق الجامعة.. تأكد أنّهم لن يقدّموا لك الحلوى عندما تزورهم يا صديقي، أنا أنصحك بعدم الذهاب

نظرت إليه نظرة تائه مستسلم وقلت:

. بل سأذهب.. قررت الذهاب..

أرسل تنهيدة وقال:

. إذًا قررت أن تتعب،

. أنا لم أفعل شيئا يعاقب عليه القانون

. ولا أنا، ومع هذا هدّدني أحدهم بمسدسه أوّل أمس، كنت في طريقي إلى الحانوت، فإذا بسيارة تعترض طريقي، نزل منها مفتشان وأوقفاني، سألاني

عن وجهتي، ثمّ فتّشاني. وعندما لم يجدا شيئا، أخرج أحدهما مسدسه وصوّبه إلى رأسي وهو يقول: أنتم الطاعون يجب استئصالكم، أنتم خطر على أمن الدولة وعلى سلامة من المجتمع، ولولا أن تدخل زميله لأطلق النّار، أتدري ماذا قال لي بعد ذلك ؟ قال: سنقضي عليكم جميعا. وفي اليوم الموالي داهمت الشّرطة المنزل، فتّشوا في كلّ مكان، أخذوا معهم كلّ ما وجدوه من كتب ووثائق، ومن حسن الحظ أنّني لم أِبتْ تلك الليلة هناك.

. ربما وضعي يختلف عن وضعك.. إنّهم لا يملكون دليلا واحدا ضدّي

رفع رأسه نحو الأعلى، أرسل بسمة استهزاء وقال:

أنت واهم يا هلال.. نعم واهم، إذا كنت أنا رغم أنني لم ألتقيك منذ مدة أملك أكثر من دليل ضدك، فكيف بالشّرطة والعيون وهم معك في كل مكان، ألم تنشر بيانا في الجريدة، ألست أحد الموقّعين الداعين إلى الإضراب، هذه أدلة ضدك، وهم بالتأكيد يملكون أكثر من هذا، اسمع يا هلال، لقد قرّروا التخلّص منّا، وما أظنّهم يتراجعون.. لقد أزفت ساعة المواجهة ولا ينبغي أن نتأخر.. إنّ ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلاّ بالقوة..

. ماذا يعني هذا ؟

. قد لا يعني أيّ شيء بالنسبة إليك، أمّا أنا فقد رتبتُ الأمور وسألتحق بإخواني في الجبل.. ما داموا يستعملون السلاح لقهرنا وإذلالنا وقتلنا، فسنستعمل السلاح نفسه للدفاع عن أنفسنا وعن حقوقنا المهضومة.

. هل تعي ما تقوله يا عصام ؟

. نعم أعي جيدا ما أقول، وأنا مقتنع تماما بهذا المسلك فهو السبيل الوحيد

المتبقي، أمّا أنت وقد قررتَ أن تُسلِّم نفسك فافعل، وسأدعو الله أن يحفظك.. لكن تذكَّرْ جيدا ما سأقوله لك الآن، إذا حدث وأن غيّرت رأيك واقتنعتَ بما اقتنعتُ به أنا وأردتَ الالتحاق بنا ولم تجد الطريق الذي يوصلك بأمان، فاكتب مقالا في أيّ جريدة يومية، تحدّث فيه عن أيّ شيء، فقط عنوّن مقالك كما يلي (وميس الأمس وميس اليوم) وعليّ بعد ذلك أن أتدبر الأمر.

على ذكر اسم وميس وصفير منبّه سيّارة مرّت بالقرب من المسجد ودّعته، ارتديت حذائي ومشيت وسؤال كبير يملأ رأسي، لماذا أقحم وميس فيما يجري ولماذا جعلها كلمة السر بيننا؟ أتراه هو أيضا؟!

11

وميس، هل تعرضتِ للتهديد من قبل ؟

لماذا تتجنّبين الحديث عن الرّجل الضخم في حضوري، أتخافينه؟ أم تخافين أن أكتشف سرّا خافيا؟

أنا متأكد من أنّك لن تبوحي بشيء، لذلك سألت المؤرخين وشيوخ الزوايا، سألت المتصوّفة وحرّاس القبور، سألت رجلا نحيفا يحتفظ بكلّ المخطوطات القديمة، سألتهم عن تلك الصور التي ظلّت تصفعني كلّما حدّقت في عينيك. عرفت بعد جهد أنّ أقواما تقاتلوا من أجل أميرة جميلة كان اسمها "ريم" وكان ملك الزمان سيّد القصر يحكم قومه بالسّيف والعدل، لكنّه بعد صراعات وصراعات قُتل في حرب ضروس، فساءت أحوالها، وفتك بها المرض وكادت تموت، فمرّ بها قائد جيش كفَّ عن عبادة الشمس والنّار، رمّم لها القصر، وجاءها بخيرة الأطباء والمختصّين فأنقذوا حياتها، وأعادوا لها عافيتها وصحتها.. غيّروا قليلا من ملامحها.. وحين تعافت تماما ألبسها ملك الزمان التّاج.. وسمّاها "تينا". قيل كانت في وقتها أجمل امرأة في الأرض، لعلمك أيتها الأميرة، لقد سلّمني ذلك الرجل النحيف صورة من صوّرها النادرة، إنّها تشبهك كثيرا.. وكأنّك هي.

وميس من أين ينحدر الرجل الضخم؟ هل هو من سلالة قائد الزمان ؟ ما علاقتك به.. لماذا يرفض أن يندثر.. أريد أن أعرف الحقيقة منك، هل أنت سيّدة في القصر أم أنت إحدى سباياه ؟

لقد قيل في"تينا" الكثير، أمّا المتصوّفة فقالوا: إنّ"تينا" دعت ربّها في السّجود فمنحها البسمة الخلود، وألبسها صورة أجمل الجميلات، وجعلها سيّدة

للقصر في كلّ العهود، وهي في كلّ مرّة ترشّ بالعطر النديّ جنانها وتتجدّد، وإنّها تتجدد الآن من خلالك أنت يا وميس.. وأمّا الرجل الضخم وقد اكتوى جدّه ملك زمان بنارها، فقد أقسم أن لا يترك هذا المكان لغيره وأن لا يغادر أبدا ما دام قادرا على البقاء.

الرجل الضّخم عند بعض النّاس وهمٌ ليس إلاّ.. أمّا أنا فأعرف أنّه يقف وراء كلّ المصائب التي لحقت بي، ومن يدري فلعلّه هو من حرّض الشرطة ضدي، يريد أن يبعدني عنك، ليخلو له المكان، نعم إنّك تهمتي.. قدري الذي لن أفلت منه.

قلت لك يا عزيزتي إنّي أغار.. غيرتي كبرت مع الوقت، صار النّاس يتحاشون الحديث عنك أمامي.. لا يتجرؤون أبدا على ذكرك بسوء، بل لا يذكرون حتى محاسنك في حضرتي، غيرتي كبيرة وحبي أكبر.. كنت دائما أخطّط للانقلاب، كنت أفكّر في طبع قبلة على جبينك تخلّد حبّنا الأبدي.

12

كلّ شيء في "الكدية" حيث مقر الأمن يؤكد بأنّ الشّرطة في حالة طوارئ قصوى . صفارات الإنذار لا تتوقف، شاحنات تأتي وأخرى تذهب، البوليس في كلّ مكان . بعضهم بالزّي الرسمي وبعضهم باللباس المدني،، الهواتف . إرسال استقبال . كلّها تشتغل ...الخ.

تقدمتُ من مكتب الاستعلامات وسلّمت الاستدعاء إلى أحد الشرطيين الماكثين بالداخل، فطلب منّي بعد تفحّص الاستدعاء الجلوس على كرسي بالقاعة المجاورة، ثمّ أخذ الهاتف وبدأ يدير الأرقام.

نصف ساعة وأنا أنتظر.. خطرت ببالي فكرة مغادرة القاعة، لكن سرعان ما تبدّدت وتلاشت، وبدت لي تافهة بل مخاطرة قد تعقّد المسألة أكثر، ثمّ عادت فكرة الهروب وراودتني من جديد، قمت من مكاني وتوجّهت نحو الباب فلم يسألني الشرطي، وضعت الخطوة الأولى خارج البناية أتبعتها الثانية فلم يلتفت إليّ أحد، فواصلت طريقي إلى أن ابتعدت فقررت أن لا أعود .

في اللّيل تزاحمت الأفكار برأسي.. كنت في غاية الاضطراب.. ماذا يعني أن أذهب بنفسي وأسلّم الاستدعاء لمكتب الاستعلامات ثم أختفي.. هل سيعتبرونه تحدّيا.. أنا بين خيارين، إمّا أن أذهب أو أن أهرب.. هب أنّني اخترت الثانية، إلى أين ؟ أين سأختفي وإلى متى ؟ يا أ الله.. ما أصابني ؟ كيف أصبحت هشّا مترددا هكذا في أول تجربة !!،، وميس إنّني في أسوا أحوالي..

على ذكر وميس تشجّعت وعاد إليّ اتزاني وقررت أن لا أذهب بنفسي، إذا كانوا يريدونني فليبحثوا عني، لن أكون لهم لقمة سائغة..

هذا القرار الذي اتخذته منحني راحة نفسية كبيرة وقدرة على النّوم.

ذهبت في اليوم الموالي إلى الجامعة، قمت بتلك الحركات اللافتة، وقصصت على بيبي ما حدث لي أمس بالكدية، لكن بدلا من أن أتوجّه كالمعتاد إلى سيّارات الأجرة، طلبت منه أن يتفضّل بإيصالي بسيارته إلى وسط المدينة.. لأتوجّه بعد ذاك بمفردي إلى سيدي مبروك حيث أقضي نهاري متسكعا بين الشوارع والمحلاّت حتّى يقترب المغرب فأتوجّه إلى الزيادية.

ونحن في الطريق بدأ الفيلم وبدأت المطاردة على الطريقة الهوليودية.

سيارة من نوع 305 تسير وراءنا، يتحايل السائق يمينا ويسارا ليجتازنا لكنّه لا يفلح، لم يخطر ببالي ولا خطر ببال بيبي أنها سيّارة أمن، لذا لم يوفّر لسائقها المسافة الكافية لاجتيازنا، فجأة تأتي سيّارة شرطة "غولف" من الجهة المعاكسة بأضوائها الزرق والمنبّه عالي الصوت.. تتوقّف في وسط الطريق، فتضطرّ كلّ السيّارات للتّوقّف، بما فيها نحن، أدركتُ على الفور بأنّني المعني بهذه العملية، فأخرجتُ من جيبي بسرعة مفاتيح مسكن كمال وسلّمتها لبيبي وطلبت منه أن يعيدها له.

في هذه الأثناء خرج من السيّارة 305 ثلاثة رجال يحمل أحدهم مسدسا.. أشهره في وجوهنا وطلب منّا الخروج من السيّارة والالتفات للخلف مع رفع الأيدي.. تقدّم بعدها أحدهم وفتّشني ثم فتح باب السيّارة 305 ودفعني بقوة إلى داخلها بعد أن وضع الصَّفْدَةَ في يديَّ، وكذلك فعل آخر مع بيبي

الذي اقتيد إلى داخل الغولف، فجأة وجدتني في المقعد الخلفي بين اثنين، أمّا سيّارة بيبي فقد تكفّل أحد رجال الأمن بقيادتها.

انطلقت السيّارات الثلاث على مسمع ومشاهدة النّاس الذين تابعوا الحدث في ذهول، كانت فعلا لقطة من لقطات أفلام المافيا.. وكنت أنا بطلها بدلا من آل كابون.

هل أتاك حديث الإرهابيين يا وميس؟ هل تابعت حلقة اليوم؟ لقد جرتْ الأحداث في منحدر "جنان الزيتون"، نعم لقد صرتُ في رمشة عين عنصرا من عناصر مجموعة إجرامية خطيرة.

في الكديا، وبعد إجراءات سريعة وتدقيق في هوية بيبي وأوراق سيّارته أخلوا سبيله، أمّا أنا فقد اقتادوني إلى أحد المكاتب في مدخل البناية ثم إلى الطابق الثالث بعد أن نزعوا الصفدة من يديَّ، دخل أحدهم إلى المكتب 07 ثم خرج.. طلب منّي الجلوس على الكرسي بالقرب من المكتب والانتظار بينما انصرفوا هم.

لا يُسمع في ذلك الرواق المستطيل ذي الثمانية مكاتب – أربعة على اليمين وأربعة على اليسار سوى خطوات الطالع والنازل وكذلك ضربات الآلة الراقنة المنبعثة من داخل المكتب07.

بعد ربع الساعة خرج شرطي نحيف الجسم عريض المنكبين من المكتب وطلب منّي الدخول.

طرقت الباب، فجاء الصوت من الدّاخل رادّا على طرقاتي سامحا لي بالدخول، فتحت الباب بهدوء ودخلت، كان ثمة رجلان وكاتبة شقراء بدينة

. السلام عليكم

ردّ السلام أحدهما وطلب منّي الجلوس، بينما اكتفى الآخر بتحريك رأسه، أمّا الشقراء فراحت تنظر إلى أصابعها وتنقّي أظافرها المصبوغة باللّون الأحمر.

أخرج من جيبه سيجارة من نوع "مارلبورو"، وضعها بين شفتيه، ثم أخرج ولاّعة صغيرة وقال:

. أنت هلال؟

. نعم

. أمس كنت هنا.. أليس كذلك

. نعم

. ثم اختفيت فجأة دون إخبارنا، يعني هربت..

قلت على الفور ودون تلعثم

. لا.. لا لم أهرب، شعرت فجأة بألم في البطن وشعرت بإسهال فتوجّهت إلى مائضة المسجد القريب.. ثم رأيت أنّه من الأحسن تأخير المجيء بيوم أو يومين حتى أستعيد عافيتي.. لم أهرب لقد جئتُ بنفسي حاملا الاستدعاء.

. لا علينا.. جئت من تلقاء نفسك أم جاؤوا بك، أنت الآن عندنا وقد جئت في الوقت المناسب.. لقد كنت أنا وزميلي قبل قليل نتناقش في مسألة معقّدة، ويبدو أنها تحتاج إلى من يفقه في الدّين للفصل فيها، ببساطة هل يجوز الخروج على الحاكم الجائر في الدولة المسلمة أم لا ؟ هل يجوز

للمسلمين أن يرفعوا السلاح مثلا في وجه رئيسهم أو مَلِكِهم إذا كان فاسقا؟

دار في نفسي كلام وكلام، لكنّني تفطّنت للمكيدة منذ أوّل كلمة تفوّه بها، فهمت أنّه يريد أن يوقعني في الفخّ ليس إلاّ، فأجبت على الفور ودون تردد:

. ميداني أنا هو الشعر والثقافة عموما، أمّا الأمور الدينية وإصدار الفتاوي فلها أهلها وأنا لست منهم.

فهم السيّد بأنّني تجنبت الوقوع في فخّه، فأراد أن يجرّني بذكاء إلى فخّ آخر:

. ربما لستَ فقيها لكن مخالطتك إيّاهم تجعلك مطلعا على فتاويهم..

. جلّ أصدقائي أدباء ولا يفتون

وقفت السكرتيرة في هذه الأثناء ووضعت يدها على كتف المحقق وهي تقول

– لا ترغمه على الإجابة، فالمسألة معقّدة على ما يبدو..

نظر إليها وهو يبتسم تم نظر إليّ وقال..

بالتأكيد لن نرغمه، نحن نستشيره فقط، نحبّ أن نسمع رأيه، أو على الأقل يدلّنا على من ينوّرنا في هذه المسألة.. من برأيك يستطيع أن يفيدنا هه من؟

. لا يحضرني أي اسم

. أنتم الأدباء فيما تتحدّثون في مجالسكم ؟

. في كل شيء، لكن لا أذكر أننا تحدّثنا في موضوع كهذا..

قالت السكرتيرة وهي تجلس في مكانها من جديد وقد ارتسمت على شفتيها

بسمة خبث:

. ربما يتحدثون في تعدد الزوجات وأنواع العطور، هذه أيضا مسائل هامة

. اِلتزمت الصمت

كان زميله الجالس بجانبه يستمع فقط، ولاحظت أنّه ينظر إلى حركاتي أكثر ممّا يستمع إليَّ، كما لو كان بصدد دراستي دراسة نفسية، لهذا اجتهدت في إخفاء اضطرابي.. لكن بمجرد التقاء عينيّ بعينيه سألني:

. قل لي بصراحة، أنت خائف ؟

. أنا مرتبك بعض الشيء،

. لماذا ؟

. ربما لأنها أوّل مرة أُستجوب فيها من قبل الشرطة،

. أليس من حق الشرطة أن تستدعي مواطنا وتسأله؟

. بلى

. حسنا

ثم التفت إلى الكاتبة التي ما زالت منشغلة بأظافرها وطلب منها تسجيل تصريحاتي، فحرّكت رأسها مبدية الاستعداد لذلك.

سألني عن اسمي ولقبي وعن اسم أبي وأمّي وتاريخ ازديادي وعنواني وعملي.. الخ، ثم سألني:

. أنت مثقف متحزب ؟

. لا. لست متحزبا

. اسمك منتشر في كل مكان، نشاطاتك كثيرة.. هل تنكر ؟

. لا أنكر نشاطاتي، لكنّني لم أنخرط في يوم من الأيام في أيّ حزب من الأحزاب

. لكنك دعوتَ للإضراب ومشيتَ في المسيرات

. القانون لا يمنع هذا

. أعرف أعرف.. لكنّك كنت تحرّض على الإضراب ؟

. أنا دائما أبدي وجهة نظري في ما يجري.. لكن لا أحرّض

أدار رأسه إلى الوراء، ثم قام من كرسيه واتّجه إلى خزانة حديدية في الجهة اليسرى من مكتبه، فتحها وأخرج شريط فيديو وقال:

. هل تعرف ما في هذا الفيديو؟

نظرتُ إلى الشريط وأنا كلّي استغراب، يا للهول.. هذا الشريط لي، أنا الذي سلّمته بنفسي لأحد الطلبة لتسجيل وقائع النّدوة التي أقمناها بالجامعة.. كيف وقع بين أيديهم؟ يا للهول.. أين عثروا عليه.. وأنا على هذا النحو من الذهول تذكّرت ما حدث يومها.

بعد الندوة ذهبت أنا ورضا إلى إحدى المقاهي وجلسنا نتحدث، وأثناء تلك الجلسة اضطررت لإجراء مكالمة هاتفية، قصدت كشك الخدمات لإجراء المكالمة، وتركت معطفي ومحفظتي على الكرسي.. في مساء ذلك اليوم وأنا في المنزل بحثت عن الفيديو فلم أجده، فأرجأت البحث عنه إلى وقت لاحق ثم نسيت الموضوع تماما. لم أشكّ لحظتها في رضا، لكنّني كنت متأكدا أنّ الفيديو كان في محفظتي.. لقد اغتنم رضا فرصة خروجي للمكالمة الهاتفية وأخذه من المحفظة.. هذا هو التفسير الوحيد.. هو الذي أوصله

للشرطة. صدقتَ يا عصام، صدقت يا كمال كنتما دائما تشكّان في رضا وتحذّراني منه.. إذًا غدرتَ بي يا صديقي رضا.. غدرت بي وفقدتَ صداقتي..

وأنا غارق في تفاصيل حكاية الشريط ارتفع صوت المحقق من جديد:

. تريد أن تعرف ما في الشريط.. تريد أن تتفرج قليلا ؟

. لا داعي يا سيدي، الشريط لي.. فيه وقائع ندوة أقمناها بالجامعة..

سألني بعد ذلك عن بعض المقاطع التي أدعو فيها صراحة لمواجهة النظام، فأجبته بكلام عام مستشهدا بكلام فلاسفة ومنظرين، محاولا إقناعه بأنّ ما قلته ينطبق على الفرد وعلى الجماعة في كل زمان ومكان وأن الصراع بين الحاكم والمحكوم كان وسيظلّ.

سألني بعد ذلك عن عصام وعن الشيخ الشريف –أحد أئمة المنطقة التي أقطن فيها– وكذلك عن الشيخ سيّاف صاحب الخطابات النارية، وكنت أجيب في كل مرّة بأنّ علاقتي بهم عادية وسطحية، وأنّني مسؤول فقط عن أفكاري لا عن أفكار غيري.

بينما كان هو يسألني، كانت الكاتبة غارقة في تسجيل أقوالي، ومن حين إلى آخر تتوقّف وتطلب منّي الإعادة، فأضطرّ لذلك.. وفي مرّة من المرات نظرت فيَّ جيدا وقالت:

لن أنقص حرفا ولن أزيد وستتحمّل مسؤولية أقوالك، ثمّ نظرت إلى زميلها أو رئيسها معتذرة عن هذا التدخل..

حرّك المحقق رأسه ثم نظر إلى زميله وسأله:

. تريد أن تسأله ؟

نظر فيّ مليّا وقال: نعم، لديّ سؤال، أرجو أن يجيبني عليه، لكن بعد أن يقرأ الجريدة

ناولني الجريدة ثم وضع إصبعه على فقرة بعينها وقال: اقرأ

كان الموضوع الذي أشار إليه بإصبعه يتحدّث عن إلقاء القبض على مجموعة إرهابية تتكوّن من خمسة أفراد ينتمون جميعا إلى الجبهة الإسلامية، هذه المجموعة كما جاء في الجريدة تكوّنت مباشرة بعد إلغاء الدور الثاني من الانتخابات التشريعية وأنّها قامت بعملية سطو على أحد المراكز البريدية، وأن رجال الأمن بعد أن داهموهم في إحدى الشقق وجدوا بحوزتهم قنابل كانت ستستعمل في الأماكن العمومية، وذكرت الجريدة أن اثنين من بين الخمسة كانوا من المجاهدين الأفغان أي ممن حاربوا في صفوف الأفغانيين ضد الاتحاد السوفيتي، وهناك تدربوا جيّدا على حرب الشوارع التي تعتمد أساسا على برودة الأعصاب أثناء تنفيذ العمليات، والدقّة في التّصويب وسرعة الاختفاء. أمّا ما أراد أن يطلعني عليه السيّد المحقق وقد عاد وأشار إليه بإصبعه هو أن أحد أعضاء المجموعة أستاذ جامعي بينما قائد المجموعة ميكانيكي لا يتعدّى مستواه التعليم الأساسي.

ما إن أنهيت القراءة حتى سألني:

. أستاذ جامعي يقوده ميكانيكي.. هل هذا معقول !؟

تمنّيت لو أن الحديث دار بيننا في المقهى أو في مكان آخر لأسأله بدوري هل من المعقول في شيء أن يتولى المناصب العليا في البلاد أناس لا يملكون

من الشهادات إلاّ شهادات الميلاد بينما الجزائر عامرة بالأمخاخ.. كما تمنيت أن أجيبه على سؤاله السابق المتعلّق بالخروج عن الحاكم بسؤال مماثل وهو هل يجوز للحاكم الخروج عن طاعة الله وإرادة الشعب.. هل يجوز للحاكم أن يقتل الشعب؟ لكن والحال أنّي بين أيديهم اكتفيت بالقول:

. نعم ثمة خلل..

سألني بعد ذلك إن كان لديّ ما أضيفه قبل إغلاق المحضر، ثم أعاد طرح السؤال مرة ثانية وكنت في كلّ مرّة أجيب: لا.

تسلّم المحضر من الكاتبة، تصفح صفحاته الأربع ثمّ سلّمني إيّاه طالبا منّي قراءة تصريحاتي ثم الإمضاء في أسفل كلّصفحة، ففعلت.

مباشرة بعد ذلك قام من مكانه وهو يقول:

. هناك لجنة مخوّلة للنظر في قضيتك وهي المعنية باتخاذ القرار المناسب، وفي انتظار ذلك تعال.. أتبعني من فضلك.

فتح الباب وراح يمشي وأنا أمشي وراءه، نزل إلى الطابق الثاني فنزلت، ثم عرّج يمينا فعرّجت، فإذا بزنزانة تقابلنا، طلب من شرطي كان هناك أن يفتح باب الزنزانة ففعل، نظر إليَ وقال:

. تفضل

رميت الخطوة الأولى ثم الثانية أرجع الشرطي الباب وأغلق القفل

أخيرا أنا في السجن.. في الزنزانة وحدي، لا رفيق ولا أنيس.. في زنزانة ضيقة وسخة لا تليق حتى بالمجرمين.. شعرت أنّ كرامتي جرحت، وأنّني أهان مرتين في هذا المكان، وتذكرت ما قاله عصام في آخر لقاء.. يا ليتني

استمعت لكلامه..

ثلاث ساعات كاملة وأنا واقف في مكان واحد.. لم أنتبه للوقت وهو يمرّ، كان جسدي في الزنزانة أمّا روحي فقد تسلّلت من بين القضبان وحلّقت وسافرت إلى أيّام زمان..

منذ أيّام الدراسة بالمتوسطة وعصام يحذرني من رضا، كان دائما يردّد القول الشهير "كلّ أشقر خبيث إلاّ عمر"، رضا وُلد ليكون عميلا هكذا كان يقول عصام، أمّا كمال فكان دائما يقول: إنّ رضا جاحد وأناني يستطيع أن يبيعك بنصف تمرة.. يفعل كلّ شيء من أجل مصلحته.

الوحيد الذي كان يبرّر تصرفات رضا ويجد له الأعذار هو قدور، وأنا بدرجة أقلّ، كان قدور يصفه بالطموح، لكن طموحه أحيانا يعميه فلا يقدّر الأشياء أحسن تقدير ومع ذلك فهو رجل مسالم كما يقول وقلبه أبيض.

أمّا وميس وهي الخبيرة بماضينا وتقلّبات أحوالنا، وهي التي سبرت أغوارنا وعرفت نقاط ضعفنا، فقد تعاملت معه بما يليق به، عرفت أنّه ضعيف أمام المغريات فكانت تغدق عليه بالدّنانير مقابل الخدمات الجليلة التي يقدمها، كانت كثيرا ما تكلّفه بأمور لا يكلّف بها في العادة إلاّ الأطفال أو الخدم، فكان يقتني لها باقات الورود والعطور، ويحضر لها الحلويات وكان يفعل ذلك عن طيب خاطر ولا يجد في نفسه حرجا.

أربع ساعات مرّت والذهن يشتغل خارج القضبان غير مبال بالضوضاء وأجواء مركز البوليس، كنت حريصا في تلك اللّحظات أن أحافظ على اتزاني وقوتي الجسمية والمعنوية.. لم أفق إلاّ على وقع خطوات ثلاثة من

رجال الأمن يحملون بأيديهم أسلحة وهم يتّجهون نحوي. تقدّم أحدهم، فتح الباب وقال: هيّا

تذكّرت وأنا أمشي بينهم صورة ابن مهيدي وهو مقيّد اليدين بين أيدي عساكر فرنسا، لم تمنعه تلك القيود من إرسال بسمة مجروحة، بسمة هشّمت كلّ الدبّابات وأسقطت كلّ الطّائرات، أدخلت الوهن في نفوس جنرالات المحتل، وظلّت على مرّ السّنوات وقودا للثوّار ونبراسا للأحرار، لذلك لم أطأطئ رأسي، بل أبقيت عليه مرفوعا وكذلك أبقيت على خزراتي الحادة.. نزلنا إلى الطابق الأوّل ثم الأرضي ثم الأوّل تحت الأرض، فإذا بباب حديدية في وسطها فتحة صغيرة أطلّ منها حارس طاعن في السّن، سلّموا له ورقة ففتح على الفور الباب، دفعني أحدهم من الخلف إلى الداخل دفعا خفيفا وهو يقول للحارس: ضيف جديد يا مولانا، لا تبخل عليه بغرفة محترمة..

كان برفقة الحارس المسن حارس آخر شاب يجلس على كرسي خشبي وأمامه فوق المكتب الحديدي الصغير مطرقة كهربائية، ما إن استدار الثلاثة وهمّوا بالرجوع حتى أغلق الحارس المسن الباب وطلب منّي نزع ربطة العنق وساعة اليد وحزام السّروال وسيور الحذاء وكذلك إخراج الوثائق وما تحتوي عليه الجيوب من نقود.

أخرجت جميع أشيائي ووضعتها على الطاولة ما عدا صورة صغيرة احتفظت بها، كان القلب حريصا على أن تظلّ في جيب القميص قريبة منه.

أخذني الحارس بعد ذلك إلى رواق بالجهة اليمنى حيث الزنزانات الجماعية،

تفقّد الأولى ثمّ الثاّنية ثمّ توجّه إلى الثّالثة، فتح الباب وهو يقول (هذه أحسن) وطلب منّي الدخول.

أتبعت خطواتي الأولى بسلام على أهل الزنزانة فردّ عليَّ بعضهم، عرفت من النظرة الأولى أنّهم من أنصار الفيس، كانوا أربعة في الزنزانة ثلاثة منهم ملتحون يرتدون أقمصة، أمّا الرابع فكان يرتدي سروالا من القطيفة الرقيقة، له شعيرات خفيفة في أسفل اللّحية، أمّا أنا الضيف الجديد، فقد بدوت بسترتي الرمادية ومعطفي الكشميري مدنيا للغاية، هذا ما جعلهم يستقبلونني ببرود نوعا ما، وعلى الرغم من هذا، أخذ أحدهم كرتونا كان يجلس عليه، مزّقه نصفين، ناولني النّصف الأكبر وهو يقول:

. لا شك أنك متعب.. أجلس

أخذت الكرتون بعد أن شكرته وجلست، وكان في نيّتي أن أفتح معهم الحديث مباشرة ليعرفوا أنّني منهم وقضيتي قضيتهم، لكنّ صمتهم لم يشجعني على الكلام.

كان لا بدّ من الانتظار سبع أو ثمان دقائق أخرى لأعرف سرّ صمتهم المطبق، ها هو الحارس يأتي مرّة أخرى ويفتح الباب، وها هو الشيخ سيّاف يدخل.

ما إن رأيته حتى نسيت التعب، قمت مسرعا لأحيّيه، ففتح ذراعيه وردّد (الله أكبر) مرّتين ثم قبّلني وعانقني بحرارة وهو يقول: نوّرت الزنزانة يا أستاذ هلال.. نوّرت الزنزانة

عرفت بعد ذلك أنّ الشيخ سيّاف هو أحد نزلاء الزنزانة، في كلّ مرّة

يأخذونه للتحقيق معه ثم يرجعونه، وعرفت أنّ كلّ نزلاء الزنزانة وكما توقّعت هم من الناشطين قي الجبهة، والحال نفسه بالنسبة لمن هم في الزنزانات الأخرى المجاورة.

ربت الشّيخ سيّاف على كتفي وقال:

. هل تعرفت على الجماعة

. ليس بعد

. إذا قبل أن نجلس ونخوض في أيّ شيء دعني أعرفك بالجماعة

هذا الأخ صالح من حيّ "بوجنانة"، وهذا الأخ رشيد من حيّ "بوالصوف" وهذا الأخ رابح من حي "سيدي مسيد" وهذا عمّي مسعود من "شارع باردو"

ثم التفت إليهم وهو يشير بيده إليّ وقال:

. أمّا ضيفكم الجديد فهو الأستاذ هلال وهو من هو.. وستتعرّفون عليه أكثر فيما بعد.

فقال رشيد: الحمد لله أنّك تعرفه، شخصيا أخافني في البداية وظننته منهم جاؤوا به ليتجسّس علينا لذلك تحفظت منه ولم أكلّمه.. معذرة يا الآخ هلال

تبادلنا بعد ذلك أطراف الحديث حول ظروف وكيفية اعتقال العديد من المناضلين والأئمة والمنتخبين والمثقفين.. الخ.

شعرت بضغط كبير في المتانة، فسألت الشيخ سيّاف

. كيف تُصَلُّون. أقصد أين تتوضأون ؟ وأين تستريحون ؟

أشار بإصبعه إلى ثقب في الأرض كان مغطى بقطعة من الكرتون في أقصى الجهة اليسرى ثم أشار إلى دلو وراء باب الزنزانة وهو يقول:

. ها هو المرحاض العمومي وها هي المائضة

وعلى الفور فهم الإخوة رغبتي في قضاء الحاجة فقام كلّ من رشيد ورابح وسوّيا كرتونا ليكون سترة لي وقالا بعد أن استدارا إلى الخلف:

. تفضل..

وعلى الرّغم من الحرج الشديد، كان لا بدّ من إفراغ المثانة، ما إن رفعت قطعة الكرتون الصغيرة للتبوّل حتى انبعثت من الثقب رائحة لا تطاق.. شعرت بضيق شديد في التّنفس فأسرعت بعدها وصببت الماء ثم أرجعت الكرتون.

على ضوء المصابيح البيض نستيقظ وعليها ننام، لا تصل أشعة الشمس إلى هذه الأماكن ولا نعرف النّهار من اللّيل ولا أوقات الصلاة إلاّ من خلال ساعات الحرّاس..

قبيل وقت صلاة المغرب جاء الحارس وفي يده كيسان، الأول فيه قطعتان كبيرتان من الخبز بداخلهما شواء، والثاني فيه تفاح وموز وقطع من الجبن الأحمر المغلّف، أمّا الأول فقال الحارس إنّه للسيد هلال مرسل من طرف (ك) وعلى الفور عرفت أنّه كمال

ثم أردف وقال: أمّا هذا وهو أيضا للسيّد هلال فلا نعرف من أتى به.

انقطع اتصالنا بالخارج.. الحارس هو وحده دليلنا ومخبرنا، فقد يتكرّم ويطلعنا على بعض ما يحدث وإلاّ فنحن في عزلة عن باقي البشر.

برودة البلاط تخترق المفاصل لتصل كالسمّ إلى القلب.. الكرتون فراشي.. والمعطف غطائي والحذاء وسادتي، لا فرق بيننا وبين أولئك المجانين الذين ينامون في العراء سوى الشعور بالإهانة.

مضى قسط وافر من اللّيل وأنا أفكّر، فكّرت في الأهل،، في الجامعة،، في الجمعية،، في وميس، لكن في الأخير هدّني التّعب وأرسلني إلى النّوم، والنّوم أخو الموت يأخذنا فلا نشعر بعدها بالألم والبرد والجوع ولا نتذكر أحدا.

في الفجر، ملأ الحارس كلّ الدّلاء الموجودة بالقرب من أبواب الزنزانات بالماء ثم أيقظنا وهو ينادي الشيخ سيّاف الشيخ سيّاف.. إنّه الفجر..

أعرف أنّ صوت سيّاف جميل وطريقة ترتيله للقرآن أخاذة، لكن هذه المرة طار بنا بعيدا، ذابت مع قراءته للقرآن كل جوارحي وخيّل إليّ أن كلّ المخلوقات اصطفت تصلّي وراءه وتوحّدت في الاستماع إليه وهو يرتّل القرآن ترتيلا.

ما بقي من التفّاح والموز كان كافيا لنملأ به نحن الستة بطوننا، ولكن ما حال الآخرين في الزنزانات الأخرى، سألت الشيخ سيّاف فجاءني الرد من عمّي مسعود:

. لن يموتوا جوعا، سيأتي الحارس بعد ساعة أو ساعتين بالحليب وبقطع صغيرة من الخبز اليابس.

سبع زنزانات، في كلّ زنزانة من ستة إلى تسعة أفراد، كلّهم يتساءلون، إلى متى سنظلّ هنا ؟ ما هو مصيرنا ؟

في اليوم الموالي قبيل الظهر، جاء أربعة من رجال الأمن يرتدون البدل القتالية

حاملين في أيديهم أسلحة، أخرج أحدهم ورقة من جيبه ونادى عنّي وعن سيّاف وصالح ورشيد ثم طلب منّا الخروج بعد أن أمر الحارس بفتح باب الزنزانة، فخرجنا وبقيَ في الزنزانة رابح وعمّي مسعود في حالة ذهول.

قبل المغادرة أرجع لنا الحارس أشياءنا وطلب منّا التأكد من وجود كلّ ما تركناه لديه عند الدخول.

بصعودنا إلى الطابق العلوي وهو الطابق الأرضي بالنسبة للبناية، تسلّلت أشعة الشمس الدافئة من الزجاج لتلامس أجسامنا الندية، هناك بأحد المكاتب أخذوا بصماتنا، أخذوا لنا صورا، قاسوا طولنا وعرضنا وحتى طول أنوفنا، ثم وضعوا الأصفاد في أيدينا واقتادونا إلى الخارج حيث كانت سيّارة من نوع (نيسان) في انتظارنا.

جلس قائدهم إلى جانب السائق في الأمام، وجلس الآخران في المقاعد الخلفية، أمّا نحن فحشرنا جميعا في الصندوق الخلفي للسيّارة، ومن شدّة ضيق المكان تداخلت أرجلنا وتناطحت رِكابنا بحثا عن موضع مريح. ولاحظنا بعد انطلاق "التيسان" أنّ سيارة أخرى من نوع "طويوطا" تسير وراءنا.

بعد دقائق من انطلاق السيّارة قال أحدهم للسائق في محاولة منه لتخويفنا وزرع الرّعب فينا: (إلى المحجر.. يا علوان)

أرعبتنا فعلا هذه الجملة، شعرنا جميعا أنّ نهايتنا اقتربت وأنّنا سنقتل ونرمى في المحجر هذا المكان البعيد ببعض الكيلومترات عن المنطقة الآهلة بالسكان، وتمنّيت لو أنّ جماعة مسلحة تعترض الطريق وتباغتهم من حيث

لا يشعرون.. وتذكرت في تلك اللّحظات ما كانت تقوله لي دائما وميس (الموت يعبث بالجبناء قبل الفتك بهم)، يعذبهم قبل أن ينزع منهم أرواحهم، أمّا الأبطال والشجعان فيأتيهم على حين غرّة، يخطف أرواحهم ويفرّ، تماما كما يفعل السارق، وكانت تقول لي أيضا: (ما دمت قادرا على مواجهة الموت فأنت ناج) هل كانت وميس على حق؟ هل أنا قادر على مواجهة الموت؟ إنّها فرصتي لأثبت للأميرة ولنفسي وللعالم كلّه بأنّني قادر على مواجهة الموت.. وعلى الفور شعرت أنّ الخوف بدأ يضمحلّ ويزول وأن إقداما ملحّا على التحدّي يملؤني فصرخت في السائق علوان:

. بسرعة يا علوان الجبان.. بسرعة إلى المحجر

التفت الجالس خلف السائق إليّ بسرعة وصوّب"كلاشه" إلى رأسي وقال:

. تريد أن نحسم أمرك بسرعة

. ومن يدري قد تموت قبلي يا وغد

استفزهم كلامي فأداروا جميعا رؤوسهم عدا السائق علوان، ورأيت الكلاش ترتعد بين يدي من أراد استفزازنا بتلك الجملة اللّعينة، فقررت أن أواصل الهجوم فقلت له:

. ماذا تنتظر أيها الجبان، أطلق النّار

ثارت ثائرة زميله الذي يجلس إلى جانبه في المقعد الخلفي فصاح

. يبدو أنك لا تعرف "كيم"، أنا كيم وسأرسلك إلى ربك في الحين

. الأعمار بيد خالقها أيها الْ..حشرة، أنت حشرة.. هل سمعت أنت حشرة

فصاح من جديد وهو يهيّئ سلاحه لإطلاق النّار:

. أسكت أيها الكلب..
. أنت الكلب.. أنتم كلاب النّظام.. أطلق النآر إن كنت شجاعا.. أنت جبان أنت حشرة..
مسك رشيد بيديه المصفدتين ركبتي اليسرى المحشورة بركبتيه وبدأ يكبّر بأعلى صوته ثم تبعه سيّاف وصالح ثم أنا ورحنا دفعة واحدة نردّد (لا إله إلآ الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله)
و نحن على ذلك الحماس والتحدّي، صرخ الضابط الجالس في الأمام في زملائه طالبا منهم الهدوء وضبط النّفس وأن يتركونا وشأننا، مذكرا إيّاهم بأنّ مهمتهم هي نقلنا وليس قتلنا.
عاد الهدوء بعد ذلك وعاد كلّ واحد منّا إلى نفسه يفكّر في مصيره، وما هي إلآ ساعة من الزمن أو أقلّ بقليل حتى كنّا أمام باب ثكنة "عين امليلة " التي تحوّلت إلى مركز تجميع المعتقلين (محشر).
توقفت السيّارة فنزل الضابط وسلّم ورقة لحارس بباب الثكنة، بعد قليل فتح أحد الجنود الباب الحديدي، فدخلت السيّارتان— النيسان والطويوطا– وعلى بعد أمتار فقط توقفتا، فطُلب منّا النّزول بعد أن حرّروا أيدينا من الأصفاد.
قبل أن تنطلق "النّيسان"راجعة، قال لي الضابط وهو يستعدّ للرّكوب:
. لقد عرّضت نفسك للموت ونجوت، ليس سهلا التحكّم في "كيم"، إذا رفع "كيم" سلاحه فلا بد أن يكون هناك قتلى أو جرحى، نجوت،، نجوت

هذه المرة وليس دائما تسلم الجرّة، لا تخاطر بنفسك..

ابتسمت بسمة المنتصر وقلت:

. سآخذ حذري في المرة القادمة.. شكرا على النصيحة.

طلب منّا الجندي الشّاب الذي لم يكن يحمل سلاحا أن نتبعه ففعلنا دون أن نسأله إلى أين، فإذا به يعرّج بنا يمينا ويدخلنا إلى أحد المكاتب المبنية بالطوب خلف مركز الحراسة، وهناك وفي أقلّ من ربع ساعة تمّت كلّ الإجراءات، سُجِّلَتْ أسماؤنا في سجلّ كبير، وسُلِّمتْ لنا الأغطية والوسائد، ثم طُلِب منّا الالتحاق بجموع المعتقلين المتواجدين على بعد مائتي متر، خلف الحاجز الثاني.

ما إن عبرنا الحاجز حتى تراءت لنا جموع المعتقلين، كانوا في انتظارنا، متلهّفين لمعرفة الوافدين الجدد ولمعرفة مستجدّات الأخبار في الخارج، مجموعات مجموعات كلّ مجموعة تمثل مدينة من مدن الشرق الجزائري.. تفقدونا.. صافحونا.. وسألونا، في رمشة عين وجدنا أنفسنا محاطين بجملة من الأصدقاء والمعارف، فكان العناق وكانت الدموع الخفيفة التي مسحت عنّا تعب الأيّام.

الوضع هنا مختلف تماما.. لنا أسرّة وأغطية وطعام وحريّة التنقل داخل حدود معينة.. الآن نحن نتنفّس الهواء النّقي ونلتقي بمعارفنا.

أيام قليلة في زنزانة الكدية جعلتنا إخوة في الله، جعلتنا نصرّ على البقاء معا فاخترنا الدّارة (د)، أمّا الشيخ سيّاف وهو الإمام الشهير فقد استُقبل استقبالا خاصا من طرف إمارة المحشر، ومن ثمة فقد كان لزاما أن يقيم في

الدّارة (أ) حيث مقر قيادة المحشر..

صارت ثكنة "عين امليلة" الواقعة على مشارف حدود قسنطينة شرقا مركز عبور جهوي، يحشد فيه أنصار "الفيس" لينقلوا بعد ذلك في طائرات عسكرية إلى أقاصي الصحراء، حيث المعتقلات الكبيرة.

إكراما للشّيخ سيّاف ولكونه آخر الوافدين فقد شرّف بإمامتنا في صلاة المغرب في الساحة الكبيرة.

بعد الصلاة وبينما أنا أتجوّل بين الأجنحة رفقة صالح ورشيد التقيت ببعض طلبة الجامعة، وببعض معارفي ومنهم السيّد إبراهيم وهو إطار بمديرية الشؤون الدينية، تبادلنا أطراف الحديث ثم اتّجهنا أربعتنا إلى المطعم لتناول العشاء، ولأنّ الحال تغيّر ولم يعد لدينا حقّ اختيار نوعية الأكل، فقد صار العدس بما فيه من حصى شهيّا ولذيذا، فأكلت حتى انتفخت بطني.

عندما وصلت رفقة الشيخ إبراهيم إلى المرقد (الشاليه)، كان الشّيخ سيّاف واقفا أمام الباب يتبادل أطراف الحديث مع الشيخ سفيان أحد الأئمة الثّلاثة المكلفين بالإمامة في المحشر، ما إن رآني حتى بادر بالسلام، ثم قدّمني لصاحبه قائلا:

. أقدم لك الأستاذ الشاعر هلال

مددت يدي وصافحته وأنا أقول: مرحبا شيخنا

فضغط على يديّ بقوة وهو يقول:

. مرحبا بشاعرنا.. أعرفك اسما والآن أتعرّف عليك صورة وصوتا

قال إبراهيم للشيخ سفيان مازحا:

. ينبغي أن تعرفه أيضا قلما ودواوين شعر.. أليس كذلك، هيّا قل نعم يا شيخ وإلاّ سيهجوك بقصيدة لن تنساها ما حييت.

على هذه النكتة تركناهما ودخلنا إلى الدّارة.. اتجّه ابراهيم يسارا حيث سريره، واتّجهت أنا ناحية أَسِرَّتنا في أقصى اليمين، وكان قد سبقني إلى هناك كل من صالح ورشيد.

كنت بحاجة ماسة إلى الانفراد بنفسي، لذلك رحت بعد صلاة العشاء وقد أديناها في الساحة الكبيرة أتفسّح داخل المركز، وأنا أسير تذكّرت أمّي وأبي، تذكّرت وميس وأستاذنا المتنبّي، تذكّرت بيبي والمدير ورسالة كمال وشريط الفيديو وهو بين يدي المحقّق، وتذكّرت الجملة المروعة (إلى المحجر).

لم يخطر ببال أحد منّا أبدا أنّ ريّاح التّغيير ستنقلب على نفسها وتغيّر وجهتها بهذه السّرعة، وأنّ جنرالات الجيش سيقيلون الرئيس وهو قائدهم الأعلى بهذه السهولة، لم يخطر ببالنا أبدا أنّ هذه السّلطة التي تغنّت كثيرا وصدّعت رؤوسنا بالديمقراطية ومزايا الديمقراطية ستنقلب فجأة على إرادة الشعب.. ما توقّعت أبدا أن رضا سيغدر بي وأنا الذي منحته الحماية منذ الصّغر..

وأنا غارق في التفاصيل ربتَ أحد الجنود الشباب على كتفي بلطف:

. من فضلك.. خويا

التفت إليه وقد استغربت بعض الشيء لطافته وتأدبه وقلت:

. خويا ؟ وليكن.. ماذا تريد يا أخي

أشار بيده إلى ضابط يرتدي بدلة الضباط الرسمية كان يقف بالقرب من

باب النّادي وقال:

. النّقيب عبد الوهاب يريدك، إنّه مدير المركز

ما إن اقتربت منه حتّى مدّ يده لمصافحتي وهو يقول:

. السلام عليكم

. وعليكم السلام

. كيف أحوالك سيّدي.. تبدو مرتاحا هنا بعض الشيء، أليس كذلك ؟

. سيّدي! مرتاح ! ربما.. نعم أنا مرتاح هنا، أحسن من زنزانات الكدية التي كنت فيها على كلّ حال

. هذا ما نرجوه الآن أن تكونوا بخير، وأن تمرّ كلّ أيّامكم هنا في هدوء..

. وهل سيطول مكوثنا هنا ؟

. أعتقد أنّه لن يطول.. ولكن مهما طال كما قلت لك ستكونون في آمان إن شاء الله..

. بعضهم يتلذّذ بشتمنا ويتفنّن في إهانتنا، بل ويتمنّى لنا الموت في أسرع وقت.. وأنت تتحدّث عن الأمان يا حضرات..

. النّاس ليسوا على ملّة واحدة.. دعنا من هذا، هل ينقصك شيء يا أستاذ هلال

. هلال !!.. تعرف اسمي؟

. نعم أعرفك.. أنا من محبّي الشعر. سبق وأن حضرت بعض أمسياتك الأدبية، وقرأت بيانك الأخير في الجريدة.

. دعني أرتّب الأشياء في رأسي أوّلا يا حضرات، أنت مدير هذا المركز،

صح.. ؟

. صح

. وأنت تعرفني وحضرت بعض أمسياتي

. بالضبط

. ماذا لو..

. تكلّم.. أنا طوع إشارتك

. أهلي يجهلون مكان تواجدي، أعطيك رقم هاتف البيت وأنت أو أي إنسان آخر يتصل بهم دون ذكر هويته ويطمئنهم عليَّ، هذا كل ما أريده، يمكن هذا ؟

. الأهل فقط.. وهي ؟ ألا تريدها أن تعرف ؟

. هي .. من؟

. الأميرة وميس..، ألا تحبّ أن أبلّغها سلامك

. وميس! لا أصدق.. أنت تقول وميس؟ تعرفني وتعرف أيضا وميس ؟ !

. ومَنْ لا يعرفكما يا أستاذ هلال؟ لقد صرتما اسمين لحكاية تتداول بين النّاس.. يسعدني جدا أن أقدّم لكما خدمة بسيطة كهذه، لكن رجاء خلّ الأمر سرّا بيننا، لا تبح به لأحد.

أعطيته رقم الهاتف شفويا، ووعدني بلقاء مماثل يوم الأحد، أي بعد عطلة نهاية الأسبوع.

كان الإخوة رشيد . صالح . ابراهيم . سفيان . سيّاف . حتى الشيخ عزيز في الشاليه ينتظرون وصولي، بمجرّد دخولي سألوني عن دردشتي المطوّلة مع

الضابط، أخفيت عنهم بطبيعة الحال ما دار بيننا من حديث حول وميس وما اتفقنا على سرّيته، حدّثتهم فقط في العموميات، وعن تأكيد الضابط وحرصه على سلامتنا ما دمنا في هذا المركز، كما أخبرتهم بأنّ مكوثنا هنا حسب الضابط لن يطول.

في صبيحة يوم السبت دخل جنديّ إلى الشاليه وهو يحمل حقيبة صفراء، سلّمني إيّاها وهو يقول: (هذه حقيبتك.. تفضّل..، لكن رجاء، أنت لم تريني وأنا لم أرك)

يا إلهي.. هذه حقيبتي الصفراء، حقيبتي التي رافقتني في كلّ أسفاري.. حملت دائما أفراحي وأتعابي.. خبّأت فيها منذ الصبا صورتي،، وطني وكل الأشياء الثمينة.. حقيبتي الصفراء تلتحق بي لتُرتبَ يومياتي هنا بطريقة أخرى..

ها هي أمّي ترسل لي "البراج" و"الطّمين التّونسي"وخبز الدّار ومنامتي الرمادية وبعض أشيائي الأخرى، ها هم يرسلون لي النقود وكذلك الكتب...إلخ

وأنا على هذه الحال من الدهشة دخل الجندي الذي كلّمني يوم الخميس أمام النادي وأبلغني بأنّ الضابط عبد الوهاب يطلبني من جديد..

ما إن طرقت باب مكتبه ودخلت حتىّ قام وحيّاني وهو يقول:

- الأهل، وميس، كلّهم الآن يعرفون أنّك ضيف عندنا بهذا المركز، خذ هذا قلمك الرخامي.. سلاحك كما يقولون.. القلم دليل على أنّي اتصلت وبلّغت.

. نعم أشهد أنك قد بلّغت.. شكرا على القلم وعلى الحقيبة أيضا..
. وعلى الحقيبة أيضا ! ماذا تقصد بالحقيبة ؟
. الحقيبة يا حضرات.. الحقيبة التي..
وعلى الفور تذكّرت ما قاله الجندي وهو يسلّمني الحقيبة (أنت لم تربي وأنا لم أرك) فقلت:
. أقصد القلم.. نعم القلم.. بهذا القلم سأكتب اسمك.. سأخلّد اسمك في التّاريخ يا سيادة النّقيب عبد الوهاب..
. تريد أن تفضحنا، أن تجرّنا للمحاكم العسكرية ؟
. اطمئن.. سأكتب عنك بعد انتهاء الأحداث
كلّ المعتقلين يتساءلون الآن عن هذا الـ هلال الذي تأتيه الحقيبة ويطلبه رئيس المركز.. هلال قال أحدهم لرشيد علامة استفهام.. لماذا يطلبونه هو على الرّغم من وجود قيادة معروفة للمعتقلين.. في الأمر إنّ..
وبلغ سمعي أيضا أنّ ثلاثة أشخاص من جماعة الهجرة والتكفير جاؤوا إلى الشيخ سفيان وحذّروه منّي ومن هذا النّقيب عبد الوهاب، وأشاعوا بأنّ الضابط يستدرجني لأكون عينا له عليهم، لكن هذا الكلام واجهه الشيخ سيّاف بكلام ألزمهم حدودهم، وأرغمهم على الكفّ عن إيذائي، قال لهم: حتما للنّظام عيون وجواسيس وربما هم بيننا الآن وهم الذين يزرعون الفرقة.. أمّا من ترونهم وترون صعودهم وهبوطهم فليسوا كما تتوهّمون..
وكان في كلامه اتهام واضح لهم..
بعد العشاء.. استلقيت على سريري وسألت من حولي:

. أتراني أخطأت؟ أنا لم أطلب من أحد أن يحضر لي الحقيبة، فقط تمنّيت لو أن أحدهم يتصل بالأهل ويطمئنهم عليّ ؟ هذا فقط ما أردت

قال صالح مبديا تفهمه:

. على كل حال جزاه الله خيرا

وقال رشيد:

. السؤال الذي يطرح نفسه يا هلال، هو كيف أقدم رئيس المركز على عمل كهذا دون تستر؟ لقد خاطر بنفسه، ألا يخشى من أن يتهم بالتواطؤ معنا؟

سؤال رشيد في محلّه وأنا لست مطالبا بالإجابة، ولست مجبرا بكشف السرّ الخفيّ وبشرح العلاقة بين الضابط ووميس، لذلك فضلت الصمت.

بينما نام الجميع، رحت أنا أفكّر في النّقيب في الأهل وفي وميس.. لماذا أنكر الضابط الحقيبة.. هل شعر بالخوف أخيرا ؟ لكن.. ربما الضابط كان صادقا ولم يكن على علم بالحقيبة.. من أرسل الجندي إذًا؟ من يقود هذه المجموعة التي اتهمتني بالتواطؤ مع النقيب؟ لماذا طلب منّي الجندي أن أمسح صورته من ذاكرتي؟ هل هي التي أرسلته؟ ربما.. إنها قادرة على أن تجعل الملايين من أمثاله في خدمتها.. أوه.

في صبيحة يوم الأحد وبعد صلاة الصبح قمت بقصٍّ ما نبت من الشعر في الخدّين وما زاد من الشوارب وسويت ذقني، لماذا لا أفعل وقد صار لديّ مرآة وموسى حلاقة وصابون..

في لحظة إضافية من تلك الصبيحة أخرجت من جيب القميص صورة وميس النائمة بجوار قلبي ورحت أتأملها، بدا لي أن شحوبا يكسو وجهها

على عكس وجهي الذي كان مشرقا في المرآة.

طلع النهار وأشرقت الشّمس، كانت السماء في تلك الصبيحة زرقاء صافية، على أطرافها طبقات سحب بيضاء مترامية زادتها بهاء، استنشقت الهواء حتى انتفخ صدري، ثم اتكأت على دبّابة حربية مهترئة ورحت أتأمّل بعينيّ الجبال المطلّة على الثكنة، فإذا بسرب من الزرازير يخطف انتباهي ويشدّني إليه وهو يذهب ويجيء.. يرتفع في السماء وينزل، ينقسم بعد ذلك إلى مجموعات، كلّ مجموعة تتّخذ وجهة، ثم تعود كلّ المجموعات إلى نقطة الانطلاق الأولى مشكلة بذلك دائرة وشكلا هندسيا رائعا، حتى إنّك لا تستطيع أن تكتشف مركز القيادة في هذا التنظيم الزرزوري المحكم، ذكاء جماعي خارق، وتناغم فنّي خلاّب.

لا أدري كيف نشطت مخيّلتي في تلك اللّحظات، فرأيت وميس بينهم وهي ترتدي فستانا ناصع البياض، وكأن "آل زرزور" من أصغرهم إلى أكبرهم جاؤوا للاحتفال بعيد ميلادها أو بزفافها.

أهي الصدفة أم الرعاية يا وميس؟

لماذا أنا دون الآخرين، دون جميع المحتجزين أملك أكثر من سروال وأكثر من قميص، وأملك منامة ومعجون أسنان وأدوات حلاقة وأملك أيضا كتبا ونقودا.. ألا تحبّين أن تريني أسيرا ؟ أهذا سرّ شحوب وجهك في الصورة؟

في حدود العاشرة والنّصف صباحا من يوم الإثنين24 فيفري 1992م، دخل الشاليه ضابطان، بيد أحدهما أوراق، قال إنّها قائمة الذين سيغادرون المركز وطلب منّا التّجمّع بسرعة في السّاحة الكبيرة حيث ستتلى علينا الأسماء

الواردة بمكبّر الصوت..

فور تجمّعِنا أخذ النقيب عبد الوهاب مكبّر الصوت وقال: هذه القائمة ليست الأخيرة بل هناك قوائم أخرى ستَرِدُ تباعا، ثم سلّم مكبّر الصوت للملازم الذي راح يتلو الأسماء وقد شملت القائمة حوالي مائة وخمسين اسما، كنت أنا ورفقاء الزنزانة الشيخ سيّاف وصالح ورشيد من بينهم.

حين انتهى طلب ممّن شملتم القائمة تحضير أنفسهم والاستعداد للمغادرة بعد ساعتين من الزمن.

لم أكن مرتاحا تماما لتلك الحركة، شعرت بشيء من الارتياب وبشيء من الانقباض إزاءها.. كنت شبه متأكد أن ساعة الإفراج لم تحن بعد، لذلك لم أبتهج كبعض الإخوة وقد بدا عليّ ذلك..

بعد ساعة تقريبا، دخلت ثلاث حافلات وتوقّفت وسط السّاحة الكبيرة، نزل من الباب الخلفي للحافلة الأولى رجل أسمر بلباس مدني يحمل في يده جهازا لا سلكيا، تقدّم منه على الفور الملازم الأوّل وأراه القائمة الاسمية ثمّ بدأ بالمناداة وبدأنا بالصعود الواحد بعد الآخر.

حين امتلأت الحافلة الأولى انتقل إلى الثانية ثم الثالثة، وحين جاء دوري للركوب في الحافلة الثالثة تقدّم منّي الرجل الأسمر وقال بصوت منخفض:

ـ وميس تتابع أخبارك عن كثب، ثانية بثانية، وإنّها توصيك بالصبر، وأنا أيضا أوصيك بالصبر فإيّاك إيّاك والحماقات، سيأتي الفرج.

حدّقت فيه جيّدا وقلت:

ـ حتى أنت..

ولأنني أحسست بأنه سينقل لها حرفيا ما سأقوله أردفت:

. شكرا على النصيحة.. سأجتهد في إخفاء امتعاضي، سأكون حملا وديعا

التفتُ إلى الخلف، وتفقدت بعينيَّ كلّ الجهات، اعتقادا منّي أنّ النّقيب عبد الوهاب سيأتي في آخر لحظة لتوديعي، لكنه لم يأت..

انطلقت الحافلات، ثم توقّفت عند الباب الخارجي بعيدا عن أعين المحتجزين الذين ودّعونا وهم يرددون (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله).

قبل أن تنطلق مرة أخرى، وبسرعة فائقة نزلت مجموعة من الكوماندوس المدجّجين بالسّلاح من شاحنة كانت متوقفة عند الباب.. صعدوا إلى الحافلات وشرعوا مباشرة في وضع الأصفاد في أيدينا، الشيء الذي استنكره بعضنا، وقد أحدث ذلك تجاذبا وفوضى داخل الحافلة، كادت أن تتحوّل إلى كارثة لولا أن تدخل الشّيخ سيّاف وهدّأ من روعة مجاوره في المقعد الذي رفض أن تصفّد يده وانفجر يصرخ ويسبّ، فضربه أحد العساكر بمؤخرة السلاح على كتفه محذّرا إيّاه..

انطلقت الحافلات وانطلقت معها حناجرنا (لا إله إلاّ الله..)، لم يكن أحدنا ليتحرّك أو يحرّك يده إلاّ ويجبر مجاوره وشريكه في الصفد على القيام بالحركة نفسها، وكانت الحديدة تضيق وتضغط على اليد مع كل حركة، لذلك طلبت من رشيد وهو شريكي في المقعد والصفد أن يتجنب الحركة.

ما بين مركز التّجميع بعين امليلة ومطار قسنطينة حوالي أربعين كلم، كنت منشغلا طيلة المسافة بالتّفرّج من النّافذة على الزرازير التي رافقتنا، تنزل تارة

وتصعد تارة وحين اقتربنا من المطار عادت أدراجها في شكل خط مستقيم صامت كأنها في جنازة..

في مطار قسنطينة جمّعونا من جديد.. نزعوا الأصفاد من أيدينا، أعادوا التأكد من وجودنا جميعا ثم بدأت عملية الصعود إلى الطائرة العسكرية الروسية "أونطونوف" ومن مطار قسنطينة مباشرة إلى مطار ورقلة حيث الحرارة المرتفعة جدا، لتنقلنا شاحنات عسكرية كانت في انتظارنا إلى الثّكنة التي تحوّلت إلى معتقل الكبير.

إنّها نبوءة قدور تتحقّق يا وميس !

قال لي قدور ذات مرّة، قبل أن يفقد عقله، وكنّا يومها عائدين إلى الدّار بعد أسبوع من الغياب قضّيناه في أعالي دوّار "بني مسلم" بالعنصر: خذ حقيبتك واذهب إلى الصحراء، تعجبتُ يومها وسألته لماذا الصحراء؟ فأجابني قائلا:

عشنا يوميات الغابة يا صديقي، أكلنا من تفّاح أشجارها وشربنا من مائها النابع من جوف الصخور ونمنا على أنغام عواء الذئاب ولم تكن تحمينا من الخنازير سوى أبواب خشبية مهترئة، عشنا أيضا تجربة البحر ونمنا في الشواطئ دون غطاء وتمتعنا برمال "العوانة" و"جان دارك" و"كابروزا" عدة مرّات، ورأينا بأعيننا كيف يتحوّل البحر من ماء دافئ ملاطف لأجسامنا إلى مجموعة من الأمواج المتلاطمة المتلاحقة التي تجرف كلّ ما تصادفه في طريقها، وإلى غول يبتلع في لحظة كلّ شيء ولا يبالي، جرّبنا الغابة والبحر لكنّنا لم نجرّب صحراءنا، لم نتقرّب من الرجل الأزرق ومن التوارق وعادات

البدو الرحل.. لا بدّ أن نجرّبها عفوا أن تجرّبها وتعيش حالاتها المختلفة وتتأقلم مع حرارتها المرتفعة وزوابعها الرملية التي تخنق النّفس، يجب أن ترى بعينيك العقرب ولسعاتها القاتلة، عذرا يا صديقي لن أرافقك إلى الصحراء، سيكون إلى جانبك غيري.

قدور أيّها الصّديق العزيز.. لا أدري بالضبط أين أنت الآن.. هل تراك تسمعني؟ هل تستطيع أن تستقبل دبدباتي؟.. أعرف أعرف أنّ عالمك يختلف عن عالمنا.. ولكنّني متأكّد أنّ هناك هامشا مشتركا بيننا، هل تؤمن يا قدور بالتخاطب عن بعد ؟

صدقت نبوءتك يا قدور.. هي ذي الصحراء التي بشّرتني بها من قبل.. هذه هي الشّمس التي تذيب الحديد، لكنّك أخفيت عنّي تفاصيل الحكاية، لم تقل لي يومها أنّني سأدخلها مصفّد القلب فاقدا لحريتي، فاتني أن أسألك عن الذين سيرافقونني، فاتني أن أسألك عن لون العقرب التي ستأتي ذات ضحى وتلسعني.

أخيرا وبعد إجراءات إدارية طويلة ومملّة في فناء مستطيل محاط بسياج، فتحوا لنا الباب الكبير فالتحقنا بآلاف المعتقلين الذين جيء بهم من مختلف أنحاء الوطن.

ست عمارات ذات الطابق الواحد، عشرون زنزانة في الطابق الأرضي، ومثلها في الطابق العلوي. في كلّ زنزانة ستة أسرّة حديدية مركبة، ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن اليسار، بالإضافة إلى خمسين خيمة نُصِّبت في الرّمل، على بعد مائة وخمسين مترا فقط من العمارات.

للشّيخ سيّاف شهرته، له تلاميذ وأتباع داخل المعتقل، بمجرّد وصولنا حجزوا له مكانا في الزنزانة رقم 3 بالطابق الأرضي من العمارة (ب) وهي زنزانة أمير المعتقل الشيخ خثير، أمّا نحن الثلاثة فقد انضممنا إلى ثلاثة آخرين، أحدهم يدعى بوزيد وهو من معارف رشيد، والثاني محمد وهو زميل صالح في العمل، أمّا الثالث فهو شيخ مسن يسمى الشيخ عبد الحفيظ ساقته الأقدار ليكون في الزنزانة رقم (25)بالعمارة(ج) وهي آخر زنزانة بالطابق العلوي في جهة اليسار.

للمعتقلين قيادة تدير شؤونهم وترتب أوقاتهم، والمسؤوليات متدرجة، من ممثل الزنزانة إلى ممثل العمارة أو الخيمة إلى رؤساء اللّجان وصولا إلى مجلس الشورى ثم الديوان المتكوّن من تسعة أشخاص، منهم الوافدان الجدد الشيخ عزيز والشيخ سيّاف، فالناطق الرسمي وأمير المعتقلين الشيخ خثير، وهو أحد قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

رئيس زنزانتنا نحن هو "بوزيد" مهمّته تزويدنا بالمعلومات التنظيمية والقرارات التي تتّخذها القيادة وخاصة لجنة الشؤون الاجتماعية وأيضا من مهامه الإشراف على إيصال الطّعام وتوزيعه ثمّ إرجاع الأواني بعد أن نقوم نحن بتنظيفها.. هناك لجنة ثانية هي لجنة الأنشطة العلمية والدينية، مهمتها توزيع الأئمة بالتناوب لإمامة المصلين في الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وتعيين الخطباء والمكلّفين بتقديم الدّروس الفقهية والإشراف على مجالس حفظ القرآن وحفظ الحديث وأحكام التّرتيل بالإضافة إلى تنشيط النّدوات والمسابقات بين الزنازين والخِيَم.. الخ.

الديوان هو الهيئة السياسية العليا، يتكون من سبعة إلى تسعة أشخاص يمثّل كلّ واحد منهم منطقة أو أكثر من مناطق الوطن أمّا مجلس الشورى فيتكوّن من عشرين إلى ثلاثين إماما ممّن يتوفّر فيهم قدر محترم من الفقه والعلم الشّرعي، ثمّ في أعلى هرم التّرتيب القائد أو الأمير وهو الشّيخ خثير.

لا يفصلنا عن العسكر سوى سور ارتفاعه ثلاثة أمتار في أسفله باب مغلقة ثم رواق طوله 200 متر، لا تفتح تلك الباب إلاّ في أوقات معينة وهي في الغالب أوقات استقدام الطعام حيث يسمح لأعضاء لجنة الشؤون الاجتماعية بالدّخول والتوجّه إلى المطبخ.

كان اليوم الرابع الذي قضّيناه بمعتقل ورقلة هو آخر أيّام شهر شعبان 1412هالموافق 1992م ثم حلّ شهر رمضان وتغيّر كلّ شيء..

كلّ وقتنا صار للصلاة وحفظ القرآن وحضور حلقات الذكر.. ليس إلاّ، فلا رائحة "الجاري" ولا رائحة "البوراك". لا وجود "للزلابية أو الجوزية أو الكوكاوية" لا تلفاز ولا مذياع.. العسكر هم من يختارون لنا نوعية الأكل وكمّيته وهم من يُعدّون الفطور ويحددون نسبة الملح فيه.. لا معنى "للسخفة" هنا، لا أمّ ولا زوجة ولا حتّى أخت ترتّب الأشياء حسب المزاج، إنّه عالم ذكوري مائة بالمائة، كم هو قبيح وجه الرّجل حين لا تغريه الحياة فلا ينظر إلى وجهه في المرآة.

قال أحد الشّيوخ وهو يعِظُنا: أخرجوا أيّها الإخوة حبّ الدنيا من قلوبكم، فإنّ حبّها إذا استولى أسر، لا تتركوا شيئا من الدنيا ها هنا "، و أشار بكفّ يده إلى الشقّ الأيسر من صدره، فتذكرت صورة وميس، الصورة التي

ظلّت نائمة بجوار القلب.. تفقّدت جيب القميص من الخارج، ثم أدخلت يدي وتلمست الصّورة، فأحسست بشيء غريب يدبّ في جسمي، وتلبية لصوت انبعث من الأعماق قمت على الفور ومشيت، وقد تفاجأ محمد وصالح لمغادرتي الجلسة بتلك الطريقة..

يا محمد ويا صالح أعرضا عمّا أنتما فيه، فلن أعتذر لأحد.. إنّكما لن تفهماني أبدا، إذا لم تفهما أنّ الدنيا لا تأسر حرّا، وأنّ وجود الأحبّة في القلب أو بالقرب منه يزيده قوة وأيمانا.

امتلأت الساحة الكبيرة صبيحة عيد الفطر بآلاف المصلين، استهلّ الشيخ عزيز خطبته بعد حمد الله وشكره ببيت المتنبي (عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ... بما مضى أمْ بأمرٍ فيك تجديدُ) وآثر أن يختمها بدعاء الطائف ((اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي... إلخ))

بعد التّصافح والتّغافر والعناق عاد كلّ واحد منّا إلى نفسه، وكم كان التذكّرُ موجعا، أبي أمّي وميس إخوتي أصدقائي يا كل من تتلهفون لرؤيتي إنّي جد مشتاق إليكم..

بعد ضغط كبير من منظمات حقوق الإنسان وبعد أزيد من شهرين صار يُسمح لأهالينا بزيارتنا، صار مسموحا لنا بامتلاك النقود وشراء الكعك والبسكويت من النادي.. صار يمكننا شرب قهوة معتّقة، وشراء بعض اللّوازم..

ستة نحن وصورة أصالة في جيبي لا تفارقني، ثلاثة أسرّة مركبة فوق بعضها من هنا، وثلاثة من هناك، نصف متر فقط هي المسافة الفاصلة بين أهل

اليمين وأهل اليسار، ظننت أنّ رفقاء الزنزانة قد ناموا، فأخرجت الصورة من جيبي ورحت أتأمل وجهها، ففاجأني محمد بسؤاله:

. من تلك يا هلال؟

قلت له وقد أخفيت الصورة بكفّي

. ظننتك نائما !

. لا لم أنم بعد.. لكن لماذا تخفي الصّورة بيدك.. من تلك يا هلال.. إنّها جميلة جدا

. من أجل هذه أحرجتكم وأحرجت شيخكم وخرجت، هذه تهمتي الأبدية يا محمد، تهمتي ومعصيتي الكبرى.

في اليوم الموالي وعلى غير العادة قصدت نادي الجنود ورافقني صالح إلى هناك وكان يعرف بأنّني أملك نقودا.. تناولنا فطورا كاملا يختلف عن فطور الأيّام السابقة.. ثم قهوة معتّقة كما يحبّ الخاطر.

بعدها بيوم أو يومين بدأتْ الزيارات وكنت ضمن مَنْ نوديَ عليهم في القائمة الأولى.. مدة الزيارة لا تتعدى الساعة.. بيننا وبين أهالينا حاجز سلكي مزدوج ملفوف على شكل مربعات صغيرة، المسافة بيننا حوالي نصف متر، نستطيع أن نرى بعضنا جيّدا.. أن نحدّق في عيون بعضنا، لكنّنا لا نستطيع أن نتصافح أو نتعانق، على هذا النّحو استقبلت أبي وإخوتي فاتح ماجد، وصديقي كمال وكذلك زميلي في العمل بيبي.

الآن صار لدى المعتقلين نقود وملابس ومصاحف، أمّا أنا فقد حظيت بزيّارة أخرى خفيّة، زوّدني خلالها الرّقيب المرسل ليلا من طرف وميس

بمذياع وصار بإمكاني متابعة الأخبار..

تدهورت الأوضاع في الخارج، صار أنصار الفيس ينشطون في السرّ، وبعضهم رفع السلاح جهرة وصعد إلى الجبل، الاشتباكات الدامية بين الطرفين صارت يومية وتزامنا معها اتسعت دائرة الاغتيالات والتفجيرات العشوائية..

صار لديّ إذًا مذياع وصار الشيخ خثير أمير المعتقل يتردّد على زنزانتي باستمرار، نشأت مع مرور الأيّام بيننا صداقة وحدث مثل هذا مع آخرين.. بضعة أيام فقط كانت كافية ليصير اسمي مصدرا لكل الأخبار.

قلت للسيّد معزي في حديث دار بيننا أثناء رجوعنا من الساحة الكبيرة بعد صلاة الجمعة:

. أشعر يا سيّد معزي أنّ مدّة إقامتنا بهذا المكان انتهت..

. شعور فقط، أم لديك معلومات يا سيّد هلال ؟

. مجرّد شعور، لكن أحاسيسي في الغالب تصدق.

بدأ المعتقل يضيق بمن فيه نتيجة الدفعات المتلاحقة للمعتقلين من كلّ جهات الوطن.. وصار لزاما عليهم ترحيل بعضنا إلى أماكن أخرى.

في حدود الخامسة من مساء تلك الجمعة عاد الشيخ خثير من لقاء جمعه بقائد الثكنة وهو يحمل في يديه قائمة بأربع مائة معتقل، قال:بأنّهم سينقلون غدا صباحا إلى مكان آخر.. مِن ضمن مَن شملتهم القائمة نحن.

قال لي الرّقيب الذي سلّمني المذياع والذي لم أتشرّف بمعرفة اسمه:

. أينما كانت وجهتكم.. سيتصل بك رقيب آخر فلا تتردّد في طلب ما

تحتاجه، لا تخش شيئا إن عيون الأميرة في كل مكان، إلى اللّقاء.

لأنّني تعوّدت على مثل هذه المفاجآت لم أسأله متى وكيف بل اكتفيت بشكره وببسمة عرفان قابلها ببسمة مماثلة.

إجراءات الترحيل كانت شاقة وطويلة، تمّت كلّها في اللّيل، من جديد أُخذت بصماتنا وأعيد تصويرنا، وهناك على البلاط بأروقة الثكنة بمحاذاة النادي قضينا ما تبقّى من اللّيل..

في السابعة صباحا دخلت ست حافلات صفراء من نوع مرسيدس، لا يختلف لونها عن لون الرّمل، نُقلنا على متنها إلى المطار، وهناك جلسنا ننتظر قدوم الطائرة التي ستقلّنا إلى وجهتنا الجديدة.. لم تصفّد أيدينا كما حدث في المرة السابقة، لكن الحراسة كانت مشددة.. أخيرا جاءت الطائرة وطارت بنا في السماء وعرفنا بأننا في اتجاه معتقل آخر في عمق الصحراء.

في حوالي الساعة الواحدة زوالا حطّت بنا الطائرة في مطار مدينة "رقان" وبسرعة نقلتنا شاحنات عسكرية كانت في انتظارنا إلى المعتقل الكبير.

على الرغم من الحرارة المرتفعة جدا والتي قد تتجاوز الخمسين درجة، خرج نزلاء المعتقل من خيمهم واستقبلونا بحفاوة..

ماعدا بعض البنايات الأرضية المبنية بالطوب والتي تشكّل في مجملها مركز القيادة العسكرية والمطبخ ودورات المياه، لا أثر للإسمنت، كلّ المرافق الأخرى تتم في خِيَم، بيننا وبين العسكر أسلاك ممتدّة من الحائط إلى الحائط.

تسعة صفوف من الخيم المتجاورة عن اليمين وتسعة عن اليسار، في كلّ صفّ ثلاثون خيمة بينهما ساحة كبيرة سُمِّيَتْ "ساحة الحرية" تَسعُ الخيمة

الواحدة من تسعة إلى عشرة أشخاص.

تتفرّع عن الشوارع الرئيسية طولا شوارع ثانوية عرضا، فنجد بعد كلّ ثلاث خيمات متلاصقة فاصل طوله خمسة أمتار يقابله مثله في الشارع الموازي في الطرف الآخر من السّاحة.. كلّ هذه الشوارع والخيم سميّت بأسماء الصحابة والغزوات وشهداء ثورة التحرير الكبرى وبأسماء بعض أعلام الجزائر كعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي، الاستثناء الوحيد هو خيمتنا نحن والتي أسميناها باقتراح منّي "خيمة إبداع ".

الوضع في رقان يختلف عمّا كنّا عليه في ورقلة، المعتقلون ليسوا على قلب رجل واحد، الجماعات متعدّدة والمذاهب متنوّعة، لكلّ فرقة أوجماعة زعيم، للسلفية حاكمهم، وللإخوان مرشدهم وللدعوة والتبليغ شيخهم وللجهاديين أميرهم وللجزأرة أستاذهم، ولعامة الجبهويين رئيس حزبهم، وهكذا تفرّقت العناوين فتبعتها القلوب، وصارت كلّ جماعة تقوم بأنشطتها وندواتها وحتىّ صلواتها الخمس بمعزل عن الجماعات الأخرى، لكنّهم جميعا تحت إمرة شخص اسمه الشيخ خثير، وتحت مظلّة كبيرة اسمها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويطلق عليها اختصارا تسمية " فيس" وهذه الحروف منقولة عن الحروف الثلاثة الأولى للتسمية بالفرنسية Front islamique du salut (FIS).

لا حياة في النّهار إلاّ داخل الخيّم، لا نخرج إلاّ لقضاء الحاجة أو لأداء الصلاة، وكنّا دائما نقدّم صلاة العصر فنصلّيها مع الظهر جمعا وتقصيرا، بعد الصلاة مباشرة يبدأ رؤساء الخيّم ومساعدوهم في استقدام الغداء، ولنا

أن نختار، إمّا أن نأكل ممّا أعدّ لنا النّظام أو ممّا طهت أيدي قادة ولزهر في الخيمة، لاسيّما وقد صار الجنود يشترون لنا من الخارج لحما وفاكهة وغيره.
لا تبدأ الحياة الجماعية خارج الخيّم إلاّ مع بداية اصفرار الشمس، أي قبل المغرب بساعتين وتستمرّ إلى وقت متأخر من اللّيل..
الثوب المدني لا يليق ولا يصلح في الصحراء، لهذا ارتدى كل المعتقلين تلك البديلة الصفراء التي وزعت علينا حسب المقاسات.
كنّا ستة في ورقلة وكانت سابعتنا وميس، مخبأة بجيب قميصي بجوار القلب، الآن وقد انضم إلينا أربعة جدد (مسعود، مليك، لزهر، قادة) فقد صارت أعباء الخيمة أخفّ، منذ البداية تكفّل الشاب قادة من مدينة "تلمسان" بالطهي لمهارته في ذلك، وتطوّع لمساعدته في التحضير والطهي السيّد لزهر، وتكفّل الأخوان مليك ومسعود بمهمة ملء الدّلاء بالماء الشّروب من الحنفيات بمحاذاة دورة المياه، ونقله إلى الخيمة يوميا، كما تكفّل الأخوان رشيد وصالح بمساعدة رئيس الخيمة السيّد بوزيد في استقدام الطعام ثمّ إرجاع الأواني بعد أن أقوم أنا ومحمد بتنظيفها، أمّا عمّي عبد الحفيظ ومراعاة لسنّه المتقدّم فهو مُعفى من أيّ تكليف، لكنّه يجد راحته في ترتيب الأشياء داخل الخيمة وفي تنقية الأرضية من مخلفات الطّعام وغيره.
في مساء اليوم الثاني ونحن نتبادل أطراف الحديث أخبرنا الشاب قادة بأنّ الرّقيب هواري المسؤول عن نادي الثكنة من أقربائه، وإنّه ينوي زيارتنا في الخيمة ليتعرّف علينا، وأخبرنا أيضا بأنّه يعرض علينا خدماته، فمن يريد أن يقتني شيئا من خارج الثّكنة فهو جاهز لتقديم المساعدة. وعرفنا بعد ذلك

أن جنودا آخرين وعساكر برتب مختلفة عرضوا خدماتهم بالطريقة نفسها على إخواننا المعتقلين في الخيم الأخرى، بعضهم بمقابل وبعضهم تطوّعا وتضامنا، وبعضهم ربما بإيعاز من قائد الثكنة العقيد طبو.

لم يمر أكثر من شهر حتى نشرت إحدى الجرائد الأسبوعية في صفحتها الأولى صورتي وكتبت بالبنط العريض الشاعر هلال في محتشد رقان.

كان الرقيب هواري الذي تعرّف عليَّ منذ مدة قصيرة فقط والذي طلبنا منه أن يشتري لنا قليلا من لحم الإبل وبطاريات للمذياع . يتجوّل في حي من أحياء رقان المدينة، فإذا به يرى صورتي في الجريدة، بمدخل أحد الدكاكين، لم يصدّق في البداية ثم لمّا قرأ الاسم وتأكد من أنّني المعني اقتنى ست نسخ وجاءنا بها وهو في غاية الابتهاج.

كما كان المذياع سببا في ذيوع اسمي بين المعتقلين في ورقلة، كان ذلك المقال في تلك الجريدة سببا في جعل قائد الثكنة العقيد طبو وقد وقعت نسخة منها بين يديه يطلب عبر السيّد خثير مقابلتي، الأمر الذي انتشر كالبرق في المعتقل.

أردت أن يكون اللّقاء في خيمتي، لكنّ الشّيخ خثير رأى أنه من الأفضل أن يكون في خيمته دفعا لأيّ تأويل أو فهم خاطئ..

في عشية يوم الأربعاء جاء العقيد طبو ومعه ضابطان أحدهما نقيب والآخر ملازم أوّل وقصدوا خيمة القيادة، وهناك عند مدخل الخيمة وجدوا الشيخ عزيز والشّيخ سيّاف وأمير المعتقل الشّيخ خثير واقفين في انتظارهم، أمّا أنا فكنت داخل الخيمة.. تصافحوا ثم دخلوا.. فوقفنا مرحبين.

قال السيد خثير وهو يقدّمنا للعقيد:

. هذا الشيخ عزيز وهذا الشيخ سيّاف، أمّا هذا فهو الشاعر هلال بلحمه وعظمه.

مدّ العقيد يده وصافحني وهو يقول:

. كيف الحال السيّد هلال ؟

. الحمد لله

قال الشيخ خثير وهو يبتسم: تفضلوا يا جماعة بالجلوس.

كانت الكنبات الحديدية مهيّأة للجلوس، مغطاة بأغطية بيضاء نظيفة، أمّا الأرضية فقد سوّيت كما ينبغي ورشّت بالماء، جلس العقيد في البداية إلى جانبي ثم قام وجلس في الكنبة المقابلة، ربما ليراني جيدا..

قال الشيخ خثير موجها كلامه للعقيد ومرافقيه: أهلا بكم عندنا، شرفتم

فردّ العقيد . تسلم يا شيخ خثير.

تدخّل على الفور الشيخ عزيز: تريدون شايا أم قهوة عربي

بينما بدأ الشيخ عزيز في ملء الأكواب بالشّاي والقهوة التي أعدّت على الجمر سألني العقيد

. بدأتم تتعوّدون على حياة الصحراء هه

. حتى الصحراء بدأت تتعوّد علينا وعلى طبائع أهل الشمال، أنتم سبقتمونا إلى هذا المكان يا حضرات ولا بد أنّكم تأقلمتم بالتدريج كما نفعل نحن الآن.

ردّ العقيد طبّو:

. والله لا أخفي عليك، شخصيا حتى ولو بقيتُ مائة سنة هنا فلن أتأقلم، لكنّني أحاول أن أوهم نفسني بذلك،
فتدخل الشيخ خثير
. فعلا الحياة هنا صعبة جدا.. لا يطيقها إلاّ أبناؤها الذين ولدوا فيها
ردّ العقيد:
. هذه ثكنة مخصصة في الأصل لتدريب فرق القوات الخاصة.. وهؤلاء لهم تدريبات قاسية..
ثم تبرّم نحوي قائلا:
. أمّا أنت يا شاعرنا فأحرى بك أن تستثمر فرصة وجودك في هذا الأقاصي من الدنيا لتكتب مطوّلتك.. أليس الشعر العربي ابن الصحراء
قلت له: كان هذا قديما، أمّا الآن فقد تغيّرت الدنيا يا حضرات.. الجماهير في عصرنا لا تقرأ المطولات، إنّها تقرأ فقط القصائد اللّمجة، ليس لديهم وقت لقراءة أو سماع المطوّلات.
. يا سيدي اكتب.. قصائد اللّمجة، قصائد الغمزة، في كلّ الأحوال النّاس بحاجة إلى قراءة أنفسهم ومشاعرهم، وهذا لن يتأتى إلاّ من خلال الشعراء..
. طبعا سأكتب، ما في هذا شك أبدا، . سأكتب عن أفاعي الصحراء.. عن علامات الأمراض التي بدأت تظهر على جلودنا،، انظر إلى قدمي، هل ترى هذه التشققات في أصابعي، هذه لم تكن موجودة من قبل.. لستُ الوحيد.. انظر إلى أرجل الجماعة.. انظر إلى أصابع الشيخ سيّاف، هل ترى؟

قال العقيد طبو وقد بدا مستاء نوعا ما:

. هذا ما خلّفه الاستعمار، في هذا المكان منذ خمسين سنة أجرت فرنسا بمشاركة إسرائيلية تجاربها النووية.. الماء ملوّث.. الهواء ملوّث.. كوارث ايكولوجية كبيرة خلّفتها تلك التّجارب، لقد أثّرت في الأرض في الإنسان قي الحيوان، كلّ الأمراض التي تنتشر الآن ناتجة عن تلك التّجارب، خاصة الأمراض الجلدية والربو والسرطان.. نحن أيضا معرّضون مثلكم لهذه الأمراض..

قال الشيخ ختير:

ولماذا يعرّضونكم ويعرّضون القوات الخاصة لهذه الأمراض؟ الجزائر كبيرة وصحراؤها واسعة !!

بينما كنّا جالسين نتبادل أطراف الحديث ارتفعت أصوات في الخارج، مندّدة بهذا اللّقاء، سمعنا بعضهم يصرخ ويصفنا بالخونة ويصف من معنا بالطواغيت.. شعرنا بحرج كبير فقرّرنا على الفور إنهاء اللّقاء مع الإبقاء على فرصة اللّقاء مرة أخرى.

خرج العقيد طبّو والضابطان، ورافقهم كلّ من الشّيخ ختير والشّيخ عزيز إلى غاية الجناح الفاصل بيننا وبين العسكر.. بينما انسحبت أنا إلى خيمتي منزعجا ممّا سمعت.

أثّرت كثيرا هذه الحادثة في الشيخ عزيز وآلمه أن يوصف بالخائن، وعَلِمنا بعد ذلك أنّ عدد هؤلاء السّاخطين علينا لم يكن يتجاوز عشرة أشخاص، جلّهم من جماعة الهجرة والتكفير، والداعين لحمل السّلاح، وعلمنا أيضا

أنّ جماعة من المعتقلين دخلوا معهم في مشاجرات كلامية كادت أن تتحوّل إلى لكمات وركلات وضرب بالأعواد.. أمّا الشيخ خثير فدعا في كلمة مختصرة وهادئة عقب صلاة العشاء إلى عدم التسرع في إطلاق التهم الباطلة ففي ذلك إذكاء لنار الفتنة، لم يهاجمهم كما كان متوقعا، بل خاطبهم بكلام رقيق طيّب، ممّا دفع ثلاثة منهم للقدوم في اليوم الموالي إلى خيمته والاعتذار.. موضحين أنّهم كانوا ضحية إشاعات ومعلومات غير صحيحة. تبديدا لما قد يصيب المعتقلين من سأم جرّاء الرتابة، وأيضا استثمارا للوقت، وضعت كلّ لجنة في مجال تخصصها برنامجا يشمل مجموعة من الأنشطة، ففي الصباح الباكر بُرمجت حصصٌ لحفظ القرآن وحفظ الحديث وتخريجه، وأيضا لتعلّم أحكام الترتيل، وابتداء من العاشرة تبدأ حصص السيرة النبويّة والتّاريخ الإسلامي والفقه واللّغة العربية ودراسة مبادئ عامة في القانون والفيزياء والكهرباء.. الخ، أمّا الفترة المسائية فهي للمسابقات الفكرية والمنافسات الرياضية وتتم في الهواء الطلق خارج الخيم، أمّا المحاضرات الثقافية واللّقاءات الشعرية فتتمّ ليلا بعد صلاة العشاء.

بعضي هنا وبعضي الآخر هناك، حرقة المسجون، حرقته تذيب المفردات. الحاضر المحبوس في الفلوات يقرأ ما تيسّر من كتاب الله، يحفظ ما تيسّر كل يوم، يقرأ الكتب ويمارس الرياضة وينظّم من حين لآخر ليلة أدبية، وبعضي التوّاق للحريّة هناك يتتبع الأخبار من خلال الجرائد التي تأتي متأخرة ومن خلال المذياع الذي لا يقول كلّ شيء.. وما بين العالمين عالم خاص فيه أمّي وأبي وبعض الأصدقاء وفيه أيضا وميس التي صرت أراها في الأحلام

كثيرا.. أراها في وجه الرقيب المتطوّع كلّما زارنا في الخيمة.. أنا على يقين أنّ من دبّر الأمر وأرسل إليّ الرقيب في ورقلة هو نفسه من أرسل هذا الرقيب ابن عم قادة، وأن من وصّى النّقيب عبد الوهاب هو من وصّى العقيد طبّو.. وميس تُطلّ من وراء كلّ عنوان... من وراء كلّ صورة، ومن وراء كلّ حدث..

استلقيت على الكنبة ورحت أتصفّح كتاب مالك بن نبي "شروط النهضة"، شعرت بعد زمن من القراءة ببرودة تدب في جسمي، وبصداع في رأسي، تحوّل كلّ ذلك إلى دوّار، حينها فقط انتبهت بأنّني وحدي في الخيمة ولا يوجد سواي، حاولت الوقوف فلم أستطع، حبوت على ركبتيّ كطفل صغير حتّى أدركت قارورة الماء، أخذتها وشربت ثم عدت حبوا إلى سريري، ولا أدري ماذا حصل بعد ذلك.

حين عدت إلى كامل وعيي بعد غياب دام يومين كتبت قصيدة كانت وميس عنوانها وموضوعها، قرأتها على رفقاء الخيمة مرتين، لكنّ ذلك لم يُشف غليلي، كنت أرغب في أن يسمعني أكبر عدد ممكن، لذلك طلبت من اللّجنة الثقافية أن تبرمج لي ليلة شعرية وتعلن عنها في المداخل والخيم. شعرت وأنا أقرأ القصيدة على من حضروا بنشوة فائقة، كانوا جميعا كما تمنّيت يستمعون إليّ بقلوبهم لا بآذانهم.. أنقل القصيدة كما جاءت:

متقابلين، أُطِلُّ من جهةٍ

رغم الحصار وأنتِ من جهة

رجل يحاصره الرصاص، فما

غنّى لغـــيرك، فجّري لغتي
أنا أنتِ، لو سألوا الدويَّ.. أنا
غَضَبُ الشّعوبِ وأنتِ حَنجرتي
بكِ يهتفُ القلبُ الضرير.. فلا
تستسلمي، أنا بعدُ لمْ أمُتِ
عيناك إنّي أحتمي بهما
من كلّ عاصفة وزوبعة
أنا حينما يشتدُّ حَرُّ دمي
وأضيق أرسم نصف دائرة
وأكون نصفك حين أكملها
يا أنتِ طرفك حَدُّ مملكتي
لك تَبْسمُ الشفتان فابتسمي
يا آخرَ البسمات في شفتي
متقابلينِ، يحدُّنا حرسٌ
أنا عاشقٌ، وهواك معصيتي
فبأيّما لـغةٍ أُحدّثــهم
أنا جدُّ مشتاقٍ لحـرّيتي
مشدوهةً.. وقفتْ تُسائلني
في مَفرق الطرقات بوصلتي
متقابلين، مَنِ الطّريدُ أنا ؟

أم أنت يا بحري وباخرتي !!

أَوَ لَمْ تكوني يوم منطلقي

من بعض أشيائي وأمتعتي؟

كيف استحلت بلحظة وطنا

كيف اخترقت شغاف أوردتي !

ها صرتِ أكبرَ من يديّ ومن

حُضني، فكيف أفكُّ شرنقتي

أدمنتُ حبّكِ، هو ذا خطئي

وعليَّ أن أغـتال عاطفتي

ما كان ذاك وذاك مشكلة

أبدا، ولكنْ أنت مشكلتي

عندما انتهيت من قراءة القصيدة صفقوا لي كثيرا وكبّروا وأبدوا إعجابهم حتى أن أحدهم قال وهو يصطنع الوقار:

يا شاعر يا شاعر اسمعني من فضلك، أنا ليس من عادتي أن أصفّق ولا أحبّ الذين يصفقون كثيرا.. لكن قصيدتك هذه أعجبتني.. نعم أعجبتني فصفّقت بحرارة.. أشهد أنّك شاعر.

اللّيلة ليلة الشّعر، ليلة انتصاره في الربع الخالي من الصحراء.. لا أدري كيف جرّني دفء اللّقاء إلى البوح أكثر فتحدّثت عن طفولتي،، عن وميس وعن الرجل الضخم.

مدهش أن ترى نفسك في الآخرين، أن تكون هنا وتسمع صوتك مدوّيا

ها هناك في الشمال.. حصل كلّ هذا دون علمي.. لقد سجلّ أحدهم بعناية فائقة وبأسلوب أدبي راق كلّ تفاصيل اللّيلة الشّعرية وأرسلها إلى إحدى الجرائد فتكرّمت بنشرها والتعليق عليها.

صارت هذه التغطية الصحفية حديث كلّ المعتقلين، إذ بمجرّد حصولي على نسخٍ من الجريدة عن طريق الرّقيب الهواري سلّمتُ بعضها للشّيخ خثير الذي مرّرها عبر اللّجان إلى كلّ الخيم، ليتسنّى للجميع قراءتها..

قرأ العقيد طبّو هو الآخر ما ورد في الجريدة وسرّه ذلك كثيرا.. بعد يومين وعن طريق الشّيخ خثير طلب أن يجلس إليَّ مجددا بعدما تأكّد أنّ صوت من ندّدوا بوجوده بيننا في المرّة السابقة قد ذبل ولم يعد لتلك العناصر أي تأثير فلم تعد حيلهم تنطلي على أحد داخل المعتقل.

قال العقيد طبّو بعد أن نزع قبّعته: عدوّكم فرنسا وأذنابها وليس هؤلاء الجنود والضبّاط الذين تلتقون بهم وتتحدثون معهم. بودّي في الحقيقة وهذا ما جئت من أجله، أن أشكر أمامكم الأستاذ هلال على الأمسية الشعرية الرائعة، والتي بسببها ذُكرتْ هذه المنطقة لأوّل مرّة منذ سنوات في الجرائد والتلفزيون وصار اسمها على لسان أهل الشمال.. شكرا لك أيّها الشاعر

. عفوا يا حضرات

. من شأن مثل هذه مبادرات أن تهدئ الأهالي، هذا مفيد جدا في هذه الظروف..

. الفضل ليس لي، أنا ما زدت على أن قدّمت نفسي الأمّارة بالشعر، الفضل يعود أوّلا وأخيرا لمن سجّل التفاصيل وقام بالتغطية.. وهو لحدّ

اللّحظة لم يكشف عن نفسه ولا أعرف من هو.

. كلاكما أدى ما عليه، لقد قمتما بشيء رائع، وقد عاد علينا وعليكم جميعا بالفائدة..

. كيف؟

. قرّروا أخيرا تزويدنا بهواتف ثابتة تعمل بالقطع النقدية، سيقوم التّقنيون بتركيبها في العاجل، وسيصبح بإمكانكم الاتصال بأهاليكم، يمكنك يا أستاذ هلال ابتداء من الغد أن تتصل بأهلك وبوميس دون رقيب ودون تحديد للوقت..

وميس، أيّتها الرّوح المتجدّدة. ألم تقرئي جرائد هذا الأسبوع ؟ ألم تقرئي اسمينا على صفحاتها.. أراد النّظام أن يغرس رأسي في الرمل، أن يمسح الذاكرة ويشرّد القلب، لكن هيهات هيهات لقد أخفق وأخفق، لقد أضافت الصحراء إصرارا لإصراري القديم وها أنذا أرفع لواء التحدّي من جديد.

بدافع الحبّ وتلبية للصوت الخفي النابع من الأعماق قرّرت أن لا أستقبل هذا العقيد بعد اليوم، لم أعد أرغب في الخروج من خيمتي، لا لن أستقبله ولن أكلّم أحدا في الهاتف.

عندما أصمت أنا، يستيقظ الغامض المخفي في الأعماق ويصرخ.. يتشكل في هيئة كلمات، وقتئذ فقط يبدأ حديث الروح، إنّني على موعد بالوجع اللّذيذ، خذ قلمي أيّها الهاجس واكتبني.

دخل محمد إلى الخيمة وأخبرني بأنّ الشّيوخ خثير وعزيز وسيّاف في طريقهم

إليَّ وترجّاني أن لا أعتذر عن الجلوس إليهم وأردّهم كما فعلت في المرة السابقة، فوافقت إكراما له وتقديرا لهم وقد أصّروا على جبر خاطري.

ونحن نتبادل أطراف الحديث قال الشيخ عزيز: . نستعمل الهواتف الثابتة ونواصل الضغط

فقلت: هذا شأنكم، أمّا أنا فلن أكلّم أحدا..

أخيرا سُمح لأهالينا بزيارتنا.. لقد جاؤوا بكثرة هذه المرّة، جاؤوا وعادوا في المساء إلاّ ميس، لم تأتي ولم ترسل أية إشارة.. أتراها غاضبة لأنّني لم أقبل بهدية أهل الشمال الطيبين الذين سعوا لتوفير خط اتصال بيننا ؟ أم لأنّني لم أشرّفها بمكالمة دافئة ؟

خمسة أشهر تحوّلتْ فيها هذه البقعة من الصحراء من منطقة صفراء موحشة مليئة بالعقارب إلى واحة خضراء يستيقظ أهلها على زقزقة الطيور، ويشربون من مائها العذب.. صار لدينا آبار نشرب منها ومنها نغتسل ونسقي النخيلات والمساحات المزروعة، صار لدينا بطاطس وطماطم وبصل وبطيخ وفول سوداني.. وصرنا نتصدّق ببعض من المحصول على العسكر.

خمسة أشهر تعلّم خلالها الأميّ كيف يكتب اسمه وكيف يكتب رسالة قصيرة، وأضاف المتعلّم إلى رصيده علوما أخرى، وازداد المثقف ثقافة وتوسعت دائرة معارفه.. صار المعتقل جامعة بحق.

خمسة أشهر وأنا أكتب وأشطب ثم أعود وأكتب من جديد، وما بين الكتابة والكتابة أقرأ كتابا أو أستمع إلى مذياعي الصغير الذي ظلّ ينقل أخبار الشارع الملتهب.

قلت للسيّد معزي الذي اعتاد على زيارتي من حين لآخر في خيمتي:

. هل تذكر ما قلته لك في ورقلة ؟

. بشأن ماذا.. ذكّرني ؟

. إنّني أحسّ يا سيّد معزي أنّ فترة وجودنا في هذا المكان انتهت

. كيف؟

. شيء ما سيحدث عن قريب، ربما سنفترق

. نفترق! أنت تخيفني بهذا الكلام.. هل قالوا شيئا في الراديو؟

. لا..

رمقني بنظرة متعطشة لمعرفة ما أقصده وقال:

. لماذا تقول هذا الكلام ؟

. أنا نفسي لا أدري، إنّه إحساس غامر

في اليوم الموالي وبعد صلاة الجمعة نودي علينا بمكبّر الصّوت للاجتماع في السّاحة الكبيرة، وهناك تُليت علينا قائمة بثلاث مائة معتقل أفرج عنهم، وفي المساء أخبر العقيد طبو الشيخ خثير أن قوائم أخرى ستصل في الأيام المقبلة.

سأغادر المعتقل وكذلك صالح ومحمد ورشيد وعمّي عبد الحفيظ.. وكم تمنّيت لو اتسعت القائمة لتشمل معزي ومسعود وقادة وبوزيد ومليك ولزهر وكذلك الشيوخ خثير وسيّاف وعزيز، آه يا شيخ عزيز لم أكن أتصور أنّك ستنهار في أوّل اختبار وبأنّك ستبكي بكاء كالأطفال، كنت تبدو لي أكثر صلابة وتجلّدا.. ما زالت كلماتك ترنّ في أذني.. كنت تضربني بقوة على

ظهري وأنت تودعني وتقول: لقد اشتقت للأولاد.. لقد اشتقت للأولاد.

في صبيحة السبت وبعد إتمام كلّ الإجراءات، امتطينا الحافلات التي ستقلّنا إلى المطار، وبمجرّد تحرّكها ارتفعت أصوات المعتقلين الباقين دفعة واحدة: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله.

أهذا أبي ؟ !

"روح يا زمان، أرواح يا زمان" شهور خمسة من الغياب والحرمان، كانت كافية لتتغيَّر الملامح والأبدان، تحوّل خلالها أبي الكهل المستقيم في وقفته إلى شيخ هرم يتحرّك بصعوبة ولا يسير إلاّ متوكئا على عكّاز..

"روح يا زمان، أرواح يا زمان"، لم أنتبه لكلّ هذا التغيّر يوم زارني في ورقلة، ربما هو أيضا لم ينتبه للبياض الذي بدأ يغزو شعري..

قيل لي: لقد زاره في صبيحة عيد الفطر منذ شهرين كثير من الأقارب وكثير من أصدقائي، ولكن كان لزيارة بيبي وقع كبير في نفسه، كان جالسا وبمجرّد أن رآه وقف، نظر إليه طويلا ثم عانقه، ضمّه إلى صدره بقوّة وأجهش بالبكاء، كان سلامه سيلا من الدموع وحزمة من الشهقات، بكى والدي، بكى صاحبي وبكى جميع من حضر..

ـ هل تعلمين يا ويس أنّ دموع الرجال هي طهارة للقلوب..

تنهّدت ويس وقالت:

ـ وهل تصدّق يا هلال.. بأنّ دموع أبيك تلك تطايرت في السماء ودارت في الهواء ثم صارت سحابا فساقتها الأقدار إليّ، لقد سقطت مطرا على

قلبي.. جاء أحدهم من بعيد وروى لي كلّ التفاصيل،، فعلا لقد بكى يومها كالطفل، أصابتني دموعه في الصميم، آلمني حاله فبكيت بحرقة كبيرة.. نعم لقد بكيت.. لكن بعيدا عن أعين الشامتين وأعين الحسّاد.

قلت لها وأنا أعرف أنّ كلامي سيثيرها:

. ربما خوفا من عيون الرّجل الضخم، أو خوفا من أن يقال وميس تبكي إرهابيا يقبع في الصحراء..

. كفى أرجوك..

. نعم سأكفّ.. أعدك أنّني سأكفّ.. سأريحك منّي ومن هذا العذاب، سأخرج من حياتك نهائيا.. سأختفي

. كفى أيها الأحمق كفى

. أنت الحمقاء.. اسمعيني جيدا، أنا الآن مراقَب وكل تحرّكاتي مسجّلة، ومن يدري قد أتعرّض للاعتقال في أي لحظة، قد أُقتل وأُرمى في الطريق كغيري..

. لا لن يفعلوا ذلك أبدا، أنت لم تقتل أحدا.. ولم تهدّد أحدا.. لقد كنت من أوّل المفرجين عنهم.. تذكر هذا جيدا..

. وهل من سُجنوا وقُتلوا ورمي بهم في الطريق كانوا مجرمين ؟

. أنت بريء من كلّ التّهم..

. أنت مخطئة يا عزيزتي، تعرفين جيّدا أنّني لست بريئا.. وهم أيضا يعرفون هذا، تريدين أن أُذكِرك بتهمتي، تهمتي هي أنت.. تهمتي هي هذا الحب الكبير الذي أخبئه بين ضلوعي.. تهمتي هي الإصرار على البقاء، على التشبث بك، هي الانتماء إليك.. اسمعيني جيّدا أيّتها الحسناء، إنّني أفكّر

بجدّ في الابتعاد عنك، هذا أَرْيَحُ لي ولك وأفيدُ لقضيتنا الكبرى.. إنني أفكّر في السفر..

. إلى أين تريد السفر.. إلى ما وراء البحر ؟

إن كنت فعلا تريد ذلك خذني معك.. خلّصني ممّا أنا فيه.. ارحم نفسك وارحمني.. أنت سندي وملجئي الأخير فلا تتركني وحيدة بينهم.. أرجوك خذني معك..

. سآخذك شوكة في الحلق ونبضة في القلب وصورة في إطار.. تأكّدي أنّنا ومهما باعدت بيننا المسافات وقست الظّروف، ستظلين معي.. ولكن حياتي هنا في خطر.. قضيتنا أيضا في خطر.. سأغيب لكنّني حتما سأعود.

. عرفتك عنيدا وأريدك أن تظلّ، فإيّاك أن تستسلم وقد وعدتني بذلك، لا تبتعد كثيرا وقد وعدتني أيضا، عهدتك قويّا وصاحب إرادة، تتغلّب على كلّ الصعاب، لقد كان الأستاذ المتنبي يقصدك عندما قال: ومنكم من سيقوم بعد سقوط بعزيمة أكبر ويواصل المشوار.. هذه قوتك يا هلال.. فلا تستسلم

. أعترف أنّني أخطأت يومها وأصاب عليّ، وما أخطأت إلاّ لأنّي اتبعت الهوى، موقفي ذاك أملاه قلبي، أمّا وقد اشتدّ الخطب فأرى أنّ الرجوع خطوة أو خطوتين إلى الوراء بهدف المضي قدما هو عين الصواب.

. بل كنت على حق، عليك أن تتشبث بالأرض فلا تسافر أرجوك

. ليس لدي اختيار

. أعرف ما يدور برأسك الآن، لكن دعني أقترح عليك حلاّ وسطا..

. ما هو ؟

تذهب وتجيء، تأتي صباحا وتغادر ليلا، ما رأيك؟

استويت في جلستي وقلت: أين أذهب ليلا. إلى الفندق؟

. أنا أتدبر الأمر، سأجد لك مسكنا لائقا في قرية من القرى المجاورة، قرية لا تبعد إلاّ ببعض الكيلومترات.. موافق ؟

كان ذلك أصعب قرار اتخذته في حياتي.. كان صعبا جدا أن أبتعد عن أمّي وأبي ووميس دفعة واحدة، لكنّني كنت مهدّدا في حياتي وكان لا بدّ أن أختفي.

حين عدت إلى البيت وأخبرتهم بضرورة اختبائي لبعض الوقت، وافق أبي بسرعة، أمّا أمّي فقبلت على مضض واشترطت عليّ أن أتزوج بسرعة وأخلّف الأولاد، حتى لا أعيش الغربة مرّتين كما تقول.. وفي هذا الشأن حدّثتها أختي راضية عن إحدى بنات الحيّ اسمها صليحة بنت الإمام.. ابتهجت أمّي للفكرة وارتاحت للبنت، لاسيّما وأنّها تعرف والديها وتعرف أخلاق الأسرة، وجاءت تقترحها عليَّ.

قالت وميس في اللّقاء الموالي وقد أعربت لها عن موافقتي على مقترحها..

. وافقت أمّك إذا..

(ثمّ واصلت كلامها بنبرة حزينة):

. أرادت تزويجك بواحدة من بنات الحيّ.. وتريد أنت الآن أن تسمع منّي ما يريحك في هذه المسألة..

. وميس، تعرفينني جيدا وتعرفين أنّي..

. اسمع أيّها الولد الذي أحببته وظللت أحرسه من لسعات الأفاعي وأنياب الأسود.. تأكد أني سأكون معك حيثما كنت.. اعلم أنّك تستطيع بعزمك الأبدي أن تهب المدينة قطرة أخرى، تستطيع أن تنير مواسمي وتعيد لي وجهي الجميل،، تستطيع أن تمنحني البسمة والخلود،، لقد حملتُ همّك منذ أن كنتَ صغيرا، رافقتك حارة حارة وخطوة خطوة، تألّمت لجراحك، وسعدت بنجاحاتك، وصبرت على عنادك، لقد صرت الآن عنوانا كبيرا ورقما فاعلا، ولن أكون أنانية هذه المرة.. لن أحتفظ بك لنفسي فقط، أنت الآن أكبر من حضني وأوسع من دائرتي وحدودي، اذهب وتزوّج وخلّف الأولاد، لكن تذكّر جيدا أنّني أحببتك بكلّ جوارحي وأنّني لن أتخلّى عنك.. وتذكّر أيضا ما وعدتني به من قبل.. إيّاك أن تجبن أمام الموت.. لا تترك قلبك يكفّ عن الخفقان.. اسأل إذا نسيتَ شيوخ الحيِّ، فإن ذاكرتهم تخزّن الألوان وكلّ الأسماء.. اذهب وتزوّج وخلّف الأولاد، وإنّي هنا في انتظارك، تزوّج واحدة من بنات الحيّ كما أرادت أمّك.. واحدة ممّن عشن حرمان الأمومة، ممن توضأن بماء زمزم في عالم الغيب.. تزوّج صليحة.. فقد أحسنت أختك راضية الاختيار..

13

لم يعد الكلام مباحا، ولم يعد اللّقاء متاحا، الخوف صار يملأ النّاس، وصارت العيون هي من تتحدث لا الألسنة، الكلّ يتحاشى الكلّ، والكلّ يشكّ في الكلّ.. حتى الشباب صاروا أقل حماسة واندفاعا..

يا إلهي أيّ دعاء أصاب هذا البلد ؟ رئيس أقيل وآخر أُغتيل ورئيس ثالث فكّر وقدّر ثم قرّر فجأة أن يقلّص مدة عهدته الرئاسية ويستقيل، حكومة تخلف أخرى، القتلى بلا حساب.. المختطفون بالآلاف وعلى رأسهم صديقي كمال والمنشد منداس والصحافي قطّاني وكلّ الأسماء الأخرى.

ممّا رسخ في ذاكرتي، أنّنا كنّا في أيّام الصبا نلعب لعبة "حين ضباب حين ضباب "حيث يجلس ستة أطفال على حافة رصيفيين ثلاثة مقابل ثلاثة وعلى رأس كلّ طفل يقف طفل آخر يغمض عينيه بيديه حتى لا يرى شيئا، فيقوم أحدهم بعد أن يَسمح له خفية صاحبه الذي يغمض عينيه، فيتوجّه نحو أحد القاعدين ويضربه على رأسه ثم يعود مسرعا إلى مكانه ويجلس وبعد ثوان يسمح للجميع بفتح أعينهم، وهنا يبدأ المضروب في البحث عن الضارب، وأثناء كلّ ذلك كنّا نردّد (حين ضباب حين ضباب، يا المعلّق في السّحاب، يا العجوز النائبة الخائبة، اخرج يا..)ثم يشير المضروب بيده إلى أحد الخمسة القاعدين متّهما إيّاه بالتعدّي عليه.. فإذا أصاب أُقصيَ الضارب من اللّعبة أمّا إذا أخطأ فيُقصى هو.

وممّا رسخ في الذاكرة أيضا أننا كنّا نردّد ونحن نلعب لعبة "الطائرة"المصنوعة من الورق بعد أن نلقي بها في الهواء أغنية نقول فيها: (يا طيّارة يلعن بوك

جيبي بابا من مروك.. يا طيّارة يا ندّابة جيبي بابا من عنابة).
يا سي الطيّب.. يا مفجر الثورة الكبرى، ألم تكن أوّل عارض جيش الحدود، ألم تكن أوّل من أدرك حجم المؤامرة ففرّرت يومها بجلدك إلى المغرب (المرّوك)، لقد تفطنت منذ اليوم الأوّل أنّ فرنسا التي خرجت من الباب اختفت وراء السور وخلف أعوانها وخدمها لتعود وتدخل من النافذة، لقد اخترت المغرب ملجأ وملاذا، وعشت في منفاك الاختياري ثلاثين سنة محترما مرتاحا، لماذا عدتَ في هذا الظّرف العصيب، لماذا؟ أأنستك الأيّام والأعوام مكر كحل الرأس وخبثه؟ أهو القدر المكتوب أم أغنيتنا القديمة هي التي أرجعتك؟ !!!، (يا طيارة يلعن بوك جيبي بابا من مروك)، لقد جاؤوا بك من"المروك" على متن طائرة خبيثة.. وعدوك كم وعدوك وزيّنوا لك قصر المرادية.. نصّبوك رئيسا ثم لـمّا أردت أن تكون فعلا رئيسا أخذوك إلى عنابة وقتلوك على مسمع ومرأى الجميع.. حتّى الكاميرات وقفت مشدوهة واجمة لم تستسغ ما حصل، وها هم الآن يعيدونك إليهم في طائرة خاصة، لتدفن أمام أعينهم وبرعايتهم، ولتكون درسا لمن يأتي بعدك (يا طيارة يا ندّابة جيبي بابا من عنابة).. لقد أنجزوا المهمة بنجاح وكنت أنت من ساعدهم على ذلك.
قال لي أحد الجيران ونحن نجتاز الطريق: إن اسم صديقنا عصام صار يتردّد كثيرا على ألسنة رجال الأمن، ما تركوا طفلا أو عجوزا أو صاحب دكّان في الحيّ إلاّ وسألوهم عنه، لقد صار اسمه مرتبطا بكثير من العمليات الإرهابية..

كنت متأكدا أنّ عصام سيتصل بي خفية في يوم من الأيام عن طريق وسطاء، أو عبر الهاتف لكن لم أتخيّل أبدا أنّه سيجازف ويأتي بنفسه..

يا عمّ، نادتني طفلة صغيرة وأشارت بإصبعها إلى رجل يقف ما بين الحائط والشجرة، أدرت رأسي ونظرت إليه، رفع يده محيّيا وفهمت منه أنّه يطلبني، لم أتعرّف عليه لاسيّما وقد حلّق لحيته، لم أبد أية حركة، تفطّن على الفور لأمري فأزاح نظارات "الريبان" من عينيه وابتسم.. إنّه عصام.

قلت له بعد التحيّة والسؤال:

. صورتك في مخيّلتي لا تخرج عن رجل ملتح يرتدي قميصا، أمّا وقد صرت ترتدي سروال الجين ونظارات الريبان فعليّ أن أحيّن عينيّ.. لا علينا، كيف حالك؟

. كما ترى يا صديقي.. ظريف خفيف جاهز لكل طارئ

. ما الذي جاء بك إلى هنا يا عصام.. أنت مطلوب كثيرا هذه الأيّام، كلّ يوم يأتون ويسألون عنك.

. أنا في مهمة، لكن صدفة رأيتك، فقلت أسلّم عليك

. الحياة صارت معقدة جدا..

. لا معقدة ولا أي شيء، لقد وضعنا على عاتقنا إزالة العقبات وحلّ كلّ العقد، أنتم ساعدونا بما تستطيعون. إذا تعسّر عليكم ذلك، ادعوا لنا، هذا ما نريده منكم أيّها المثقّفون

. اللّهم يسّر، وأحفظ بلدنا من كلّ سوء... لكن

. لكن ماذا ؟ هؤلاء لا يفهمون إلاّ لغة واحدة هي القوة، القوة يا هلال،

حتى أنت لن تسلم منهم، حتما سيأخذونك اليوم أو غدا أو بعده، وهذه المرّة لن تفلت منهم، أنصحك بالاختفاء.. سلام

. سآخذ نصيحتك بعين الاعتبار يا عصام.. سلام..

ستة أعوام من التمويه..

ما تبدأ خيوط الشمس في الانتشار حتى أكون في محطّة الحافلات بحي بوالصّوف، وهذا الحيّ هو واجهة المدينة الأولى للقادمين من جهتها الغربية، هو الخطّ الفاصل بين المدينة والريف، هناك كنّا نلتقي كلّ صباح، كنتُ خفيف الخطى وكانت ميس تتعمّد السّير يبطئ، أدركت بعد مدة أنّنا لم نكن وحدنا، كان الرّجل الضّخم يراقبنا من بعيد، يراقب خطواتي، يتربّص بي، الآن فقط عرفت سرّ بقائي حيّا، كان القناصة يخاف أن تزلّ قدمه أو يرتعش أصبعه أو تميل عينه فيخطئني ويصيبها، لذلك لم يطلق النّار وقد حذره سيّده مرارا، كان ظهري نصب الرصاصة والمسدس، إنّهم لا يقدرون على المواجهة الصريحة، يطلقون نيرانهم فقط من الخلف.. ذاك ديدنهم.

كان الرجل الضخم يكبرني سنا وحجما ويفوقني تجربة وشهرة، ولكنّني لم أستسلم للخوف الذي يتملكني حين أراه، كنت أمرّ بالقرب منه وأبصق في الأرض، كان ذلك تعبيرا واضحا عن احتقاري له، لذلك كان يهددني برفع يده محذرا، وكنت أتوعّده بخزراتي الثاقبة، وصمتي الصارخ. إمّا أنا أو أنت.

14

ارتفع صوت المؤذّن معلنا اقتراب وقت صلاة الصبح.. نظرت إليّ وميس، فرأيت آثار الدموع في عينيها.. رموش عينيها كانت مبلّلة وقد زادها ذلك بهاء، صارت كوردة بلّلتها قطرات النّدى..

الفجر لحظات فقط، لحظات لا تنتظر الكسالى، فيها يحدث الانقلاب الكبير ويتقرّر المصير، وفيها توضع معالم اليوم الجديد، إنّها لحظات التحوّل والخروج من الظلمات إلى النّور.. وأمّا صلاة الصبح فتطهّر القلب وتحرّر الإنسان..

في هذه الأثناء مرّت ريح خفيفة أنعشت قلبي وجوارحي، شعرت كأنّ الله أرسلها ليمسح بها ما علق بالقلب من أدران، وقد زادتها ريح وميس وعطرها الفوّاح عذوبة فلامست جلدي وطبعت قبلة على خدّي، نظرت إليها فابتسمت وتوضأت ثم صلّت معي..

لم تغادر وميس المستشفى كما كنت أتوقّع، كانت في كلّ مرّة تقول لي جرّب.. توسّل إليه إذا لزم الأمر، لكن طبيب المناوبة يعتذر في كلّ مرّة ولا يسمح لي بالدّخول، مرّة واحدة سمح لي برؤيته من الزجاج وكم سرّ ذلك أبي عندما فتح عينيه ورآني، إنّه بخير.. إنّه يبتسم..

وميس لم تغادر، لكنّها لم تساعدني، صحيح أنا لم أطلب منها ذلك، وما من عادتي أن أطلب، تمنيت لو فعلت من تلقاء نفسها.. إشارة واحدة منها كانت ستزيل كل المعيقات لكنّها لم تفعل، فضلتْ أن أبقى إلى جانبها..

في الساعة السابعة صباحا كانت خيوط الشمس قد انتشرت في كلّ الأرجاء، فُتح باب المستشفى وسُمح للنّاس بالدّخول، كانت أمّي وأختي في مقدمة الآتين، قالت أمّي وقد كسا وجهها الشّحوب:

. كيف حاله؟

. لا تقلقي يا أمّي.. إنه بخير إن شاء الله..

. هل رأيته

. طبعا، رأيته ورآني

. سمحوا لك بالجلوس معه.. هه ؟

. لا، لم يسمحوا بذلك. سمحوا لي برؤيته فقط

تفرّست في وجهي وقالت:

. تبدو متعبا جدا وربما لم تنم إطلاقا ؟

. صحيح أنا لم أبرح هذا المكان، ظللت واقفا هنا رفقة..

التفت إلى الخلف فلم أجد وميس

. رفقة من..

. رفقة الذكريات،، رفقة صور من الماضي.. تذكرت طفولتي فمرّ الوقت بسرعة.

ثم مسكتها من يدها متجنبا الاستطراد: هيّا ندخل

عند الباب طلبت منّا الممرضة التريث قليلا حتى ينهي الطبيب دورته الصباحية.

خلال مدة الانتظار اكتظ الجناح بالزّوار.

خرج الطبيب بعد مدة قصيرة وهو يبتسم وقال لي بصوت مسموع: بإمكانكم يا سيّد هلال أن تأخذوه إلى البيت.. الحاج صار شابا من جديد.

15

لم تعد الدنيا حلوة كما كانت من قبل، وجوه النّاس بدأت تشيخ بشكل غير طبيعي، لا حديث في المقاهي ومقرّات العمل وحتى في نشرات الأخبار إلاّ عن الموت والدّمار وقطع الرّؤوس والسّطو على البنوك ومراكز البريد..

لقد كنت محظوظا أكثر من غيري، أُطلق سراحي في أوّل دفعة، وأُعيد إدماجي في عملي ومنصبي دون أية تعقيدات، على خلاف كثير من المعتقلين المفرج عنهم، اعتبرني بعض النّاس بطلا، لكن آخرون تنكّروا لما كان بيننا وصاروا يتفادون الحديث معي ويتجنّبون حتىّ إلقاء السلام عليّ..

أنا بالنسبة إليهم صرت إرهابيا، وإن لم أكن كذلك فأنا من المتواطئين معهم أو الداعمين لهم..

من بين الذين زاروني في البيت صديقنا القديم رضا، استقبلته ببرود تام، لم أشأ أن أخبره بأنّني أعرف أنّه هو من وشى بي وأنّه هو من سرق منّي شريط النّدوة وسلّمه للشرطة، تجاهلت كلّ ذلك، لكنّني لم أوفق في التبّسم في وجهه، ثم ساء الأمر أكثر بعد ربع ساعة، عندما انضمّ إلينا كمال فأشعلها حربا كلامية..

قال كمال وهو يضع قطعة السكّر في فنجان القهوة:

لقد امتلأت الجبال بالمجاهدين، للجزائر رجال يحرسونها يا هلال..

فردّ عليه رضا باستهزاء: بالمجاهدين.. بل بالإرهابيين المتعطشين للدماء.

صرخ كمال في وجهه..

ـ أغلق فمك من فضلك، أولئك أسياد وأحرار وليسوا من طينتك.. أنت

بالضبط عليك أن تسكت.. مفهوم..

كانت يومها قد بدأت الاغتيالات تطال رجال الأمن والمثقفين، وفي المقابل بدأت الرؤوس تطير في الأحياء الشعبية، كأنّ الخصمين اتفقا على معاقبة الأعوان والأنصار بدل المواجهة الصريحة، لم يعد أحد يعرف من يَقتل من، ولماذا، النّاس مُلئوا خوفا ورعبا.. المنازل تَغلق أبوابها قبل المغرب بالحديد، فلا تُفتح للطارق إلاّ بعد التأكد التّام من هويته ومن أنّه لا يشكّل خطرا، كلّ طرف صار يجتهد في شيطنة الآخر عبر قنواته، الإشاعات تنتقل بسرعة البرق، ولا حظَّ لعابر السبيل في فهم ما يجري..

قلت لكمال وقد بدا ساخطا جدا من ردّ رضا:

. اهدأ يا كمال، هذه ليست مقابلة في كرة القدم، لسنا مجبرين أن ننحاز لطرف أو نتهم طرفا دون آخر، الأيّام والأحداث كفيلة بأن توضّح كلّ شيء

نظر إليّ نظرة المغتاظ وقال:

. المرحلة لا تتطلب الحياد أو السّكوت، على كلّ واحد أن يختار موقعه نحن في حرب يا صديقي هلال وهذا الكلـ... ؟

. قلت لك اهدأ ولا تتلفظ بما لا يليق

التفت إليّ رضا وقد ضاق صدره من كلام كمال وقال:

. أنا سأذهب يا هلال.. الحمد لله أنّك عدت إلى أهلك وإلينا سالما.. لكن صراحة كمال أصبح لا يطاق..

خرج رضا وبقي كمال متوترا كأنّه يريد اللّحاق به والانقضاض عليه، رمى

ملعقة صغيرة كانت بيده وقال: (طريق السّد، تدّي ما ترد)
قلت له بعد أن هدّأتُ من روعه:
. يا كمال . هناك أشياء نتخذ بشأنها احتياطاتنا، لكن لا نقولها.. ليس كلّ ما يُعرف يُقال..
. أعرف ذلك لكن رضا خبيث، رحم الله شيخنا العلاّمة ابن باديس حين قال "واقطع جذور الخائنين.. فمنهم كلّ العطب" والله لو كان رضا موجودا في حقبة الاستعمار وأدركته فرنسا لكان أحد عملائها الكبار، إنّه خائن وربما ورث الخيانة عن أبيه وجدّه، لقد حذرني منه أكثر من واحد، طبعا أنت لا تصدقني.. دائما تجد له الأعذار، لكن ستأتيك أخباره.. الأيّام بيننا..
قلت لكمال مبديا تفهمي واقتناعي: بل إنّني أصدّقك، ولديَّ الدليل على ما تقول، لكن ليس هذا وقت فضحه، ما أنصحك به هو أن لا تندفع وأن لا تقول كل شيء تعرفه، الحيطة ضرورية.. نعم علينا أن نحتاط كثيرا في هذه المرحلة.
ما كدنا ننهي حديثنا حتى سمعنا دويّ انفجار قنبلة تبعها صوت طلقات الرصاص، فركضنا إلى النافذة ورأينا النّاس يركضون، أراد كمال أن يغادر بسرعة فنصحته بالبقاء حتى تهدأ الأمور.
نصف ساعة كانت كافية ليطوّق الجيش بمعية الدرك المكان من كلّ الجهات، أغلقوا المداخل، فتّشوا الذاهب والأتي.. فتّشوا السيّارات، وأوقفوا العشرات من المارة أغلبهم شباب.

بعد شهرين من هذه الحادثة التي استهدفت مركز الشرطة، والتي راح ضحيتها شرطي وشاب كان يقود درّاجة، نزل الخبر كالصاعقة.. كمال اختطف من منزله ليلا.. وانتشرت إشاعات بين النّاس تقول إنّه كان متواطئا مع المدعو عصام أمير كتيبة يطلق عليها "كتيبة وميس"، وهي الكتيبة التي كانت وراء العملية التي استهدفت مركز الشرطة يومها، وإشاعة أخرى تقول لقد زوّد كمال كتيبة وميس بمواد كيميائية لاستعمالها في صنع القنابل.

ليتك يا كمال استمعت إليّ، ألم أنصحك بأن لا تقول كلّ شيء وأن تحتاط.. قد لا تكون لك أية علاقة بالعملية، لكن مجرّد أنّك تواجه رضا بتلك الحدّة وتفتخر بعصام وبالمجاهدين في الجبل كفيل بأن يجلب لك المتاعب، قد يكون رضا هو من وشى بك.

الأقدار تدفعنا أحيانا دفعا، وتجبرنا على مواجهة المصير المحتوم ولا نملك إلاّ أن نسير، هذا مصيرك يا كمال، ومن ذا يفر من مصيره ؟

سنوات تأكل من لحم السنوات.. ثلاث سنوات كاملة ولا أثر لكمال، أين أنت الآن يا صديقي؟ أميّت أنت أم حي.. هل أنت واحد من هؤلاء المرميين على قارعة الطريق.. أعوذ بالله أستغفر الله، لا أريد أن أتخيّل هذا.. فظيع.. فظيع...

لقد اكتوت لالا فاطمة من قبل بفقد زوجها السيّد رجم الذي كان كل شيء بالنسبة إليها، وها هي الآن تُفجع في وحيدها كمال.. لا شيء يخفّف عنها ألمها وينسيها، إنّها تخرج رفقة مثيلاتها أمّهات المختطفين وزوجاتهم ويتجمّعن مرّة أو مرتين كل أسبوع، يطالبن بالكشف عن مصير

أكبادهن، فمن ذا الذي يستطيع إقناعهنّ بالعدول عن التجمع، إنّهن يطالبن بالكشف عن الحقيقة ليس إلاّ، عن المكان الذي دفنوا فيه إذا كانوا قد قتلوا.. من ذا الذي يستطيع أن يمنع زوجة راشد من السؤال عن قبر زوجها أو المفجوعة أم أمين من البكاء والصراخ حد الموت على فلذة كبدها.

في الساحات العمومية، في زجاج المحلاّت، عند مداخل المؤسسات عَلَّقت الدولة إعلانات بها صور بعض المعتصمين بالجبل، وجعلت مقابل التبليغ عنهم أو المساعدة في القبض عليهم مكافآت مالية مغرية، صار رأس عصام مطلوبا حيّا أو ميّتا مقابل ملايين الدينارات.

الأخبار تصل تباعا، وعصام لا يكفّ عن مطاردة أعوان الأمن وأعوان الدفاع الذاتي، صار شبحا مخيفا بالنسبة إليهم، بمجرّد ذكر اسمه ترتعد فرائسهم.. لقد اخترت طريقك يا صديقي عصام ولا دخل لي بذلك، لكن لماذا تُصرّ على إقحام اسم وميس في كل مواجهة؟ لماذا تسمّي الكتيبة باسمها، هل كان لزاما أن تكون وميس عنوانا وختما وتوقيعا لعملياتك؟

المضايقات والتحرّشات في كلّ مكان وفي كلّ حين، حتّى "كريكو" ولد "الرمانة" رحمها الله، ذلك المتشرّد التّعيس الذي طرده عمّه من االدّار خوفا على بناته منه، والذي صار يبيت في مدخل ضيق في أسفل العمارة لمدة سنوات وأحيانا في الشارع أو داخل السيّارات التي كلّف بحراستها ليلا، اغتنم هذا الظرف الأمني وجعل منه فرصة ليحقق شيئا في حياته، لقد التحق بأعوان البلدية أو ما يسمى (الشنابط) وهم من تطوّعوا لمحاربة

الإرهابيين، هو أيضا صار يتشفّى في كمال ويتمنّى قتل عصام، حتّى أنا لم أسلم من لسانه، ذكرني عدة مرّات بسوء ونسي كلّ ماضيه التعيس ونسي من كان يشفق عليه.. ها هو اليوم يضع بنقدية على كتفه ويتبختر في مشيه.

لا بدّ أن تصبر على الأذى وأن تنتبه للمكائد التي تنصّب لك هنا وهناك.. الابتلاءات كثيرة وعليك أن تصبر، هذه وصية وميس التي تراقب الأحداث منخلال كاميرات قصرها ومن خلال هواتفها التي لا تتوقف عن الرنين.

بعد وجبة غداء في أحد مطاعم وسط المدينة وقبل عودتنا مجددا للعمل، توجّهت أنا و"بيبي" إلى مقهى مجاورة للمطعم، ونحن نتبادل أطراف الحديث، دخل شخص يدعى 'الزّو' وهو أحد وضعاء المدينة، معروف بأنّه قضّى نصف عمره في السّجون والنّصف الآخر في شرب الخمر ولعب الأوراق والمشاجرات، ما إن رآنا حتّى اصطنع تعثرا في السيّر وحرّك طاولتنا بيده فسقط فنجان "بيبي" في الأرض وتكسّر، كما تلطخت سترتي من أسفلها بالبن، لم يبادر الوضيع ويعتذر عن فعلته، بل راح ينظر إلينا ويقهقه كالدجاجة، ثم قال بصوت مسموع: وجوه الشرّ..

مسك بيبي بيدي وقال بصوت منخفض:"الزّو" هو عين الشرطة هنا، إنّه يستفزّنا عمدا فلا تمنحه الفرصة..

ولأنّ الوضيع اعتاد على سكوت النّاس وعدم الردّ عليه، تفاديا للدّخول معه في مشاكل لا تنتهي، مشى هو والشاب الأسمر الذي كان برفقته نحو المصرف خطوات ثم عاد، خزر في "بيبي" وقال له:

. لماذا تتمتم كالمرأة بين شفتيك، لماذا لا ترفع صوتك فأسمعك

نظر "بيبي" إليه ثم تبرّم نحوي وقال: السكوت على الأحمق جوابه

وضع "الزّو" يده على كتف "بيبي" وقال: يبدو أنّك لم تسمعني أو أنّك لا تبالي بكلامي؟

بسرعة نزعت يده من كتف "بيبي" وقلت له:

. تأدّب قليلا

. أتأدب !! رائعة هذه..، أنت تتحدث معي ؟

. وهل يحتاج هذا إلى توضيح،

وتأكيدا للتحدّي قلت له بصوت سمعه كلّ من في المقهى:

. سمعناك جيدا، ولا أعتقد أنّ هناك وجه شرّ في هذه المدينة كوجهك.. ابتعد عن طريقنا

انفعل بسرعة، أراد أن يمسكني من صدري، فدخل بيننا "بيبي"، دفعني قليلا إلى الوراء وهو يقول: أرجوك هلال اهدأ، أنا سأتفاهم معه

. لا لا دعه لي من فضلك، أنا الذي سأؤدبه

أنت تؤدبني (صرخ الزّو).. أه لقد حدّثوني عنك أيها الشّاعر.. كنت أنتظر فرصة وقوعك بين يديّ.. ها أنت قد جئت بنفسك

وصرخ رفيقه من الخلف: أنت تتحدّى "الزّو"

. قلت له متحديا أكثر: "الزّو" مجرّد بيدق، وهو لا يساوي حتى جوارب حذائي

بمجرّد سماعه هذه الكلمات استشاط غيضا، نزع سترته وبدأ يصرخ:

سألقنك درسا لن تنساه.. ستعرف من اليوم فصاعدا كيف تتحدّث مع "الزّو"

أحدث ذلك الصراخ ذعرا في من كانوا في المقهى، خاصة لما رأوه يخرج من جيبه سكينه الذي اشتهر به، فقلت له وأنا كلّي ثقة وتحد.

. لولا أنّي أعرف أنّك فقط بيدق، تنفذ أمر غيرك للقنتك الدّرس قبل أن تتلفظ بهذه الكلمات.. لست سوى بيدق عند الرجل الضخم.. كم أعطاك لتجازف بنفسك وتتهجّم على أسيادك هه.. كم أعطاك.. تظنّ أنّك تخيفني بالسكين.. تعال جرّب حظك.. اقترب..

أراد في الحين أن يقفز من فوق طاولة كانت تفصلني عنه وينقض عليّ، كما حاول صاحبه في الوقت نفسه أن يتهجّم علينا بهراوة كانت مخبأة وراء صناديق القازوز، لكن "بيبي "كان له بالمرصاد وبدأ يتشاجر معه، وحين بدت "للزّو" صعوبة القفز من الطاولة، دفعها بيده وركض نحوي، وبسرعة خاطفة رجعت إلى الخلف وركلته برجلي علي ظهره فسقط السكين من يده فارتميت عليه مقدما ركبتي اليمنى التي اصطدمت بصدره فسقط على الأرض ثم ارتميت عليه ثانية ومسكت برقبته وظللت أضغط حتى كاد يختنق.. وجّهت له لكمة وأتبعتها بأخرى ثم أنهلت عليه وأشبعته ضربا حتى طاش الدم من أنفه ومن حاجبه، فأصدر صوتا غير مفهوم بدا من خلاله كأنّه يطلب النجدة ثم فجأة سكت، أراد النّادل في هذه اللّحظة أن يتدخل ويفكّه من يدي فزجره أحد الزبائن وقال له: دعه.. يستأهل والله.. على الكيف

وسمعت آخر يقول لقد قتله فتوقفت مذعورا عند سماعي هذه الكلمة.. وكنت أنوي جرّه من رجله كالشاة وألقي به خارج المقهى، ليتفرّج عليه الذاهب والآتي، لكن خشيت أن يكون قد مات فعلا، وتذكرت على الفور نصيحة "وميس" فقمت مانحا الفرصة للنادل وشخص آخر ليسعفاه. بعد دقيقة وبعد أن رشوا وجهه بالماء عاد إليه وعيه، التفت يبحث عن صاحبه فلم يجده وقد أدّبه "بيبي" واضطره للهرب، فقام هو أيضا وانسحب مهرولا..

عندما توجّهت للمصرف لدفع ثمن قهوتي وقهوة "بيبي" نادى شخص من آخر الصالة قائلا لصاحب المقهى: مشروبات جميع من في المقهى على حسابي اليوم.

انتظرت أن تستدعيني الشرطة لتُحقِّق معي في الواقعة، أو يأتي"الزّو"مدعوما بجماعته ليثأر لنفسه كما يفعل دائما، لكن ذلك لم يحدث، الأرجح أنّه لم يخبر أحدا بما حدث، خوفا من الفضيحة.

16

وأنا أتّجه بخطواتي المتثاقلة إلى المنزل، بعد يوم طويل عامر بالعمل والأحداث، اعترض طريقي صديقي قدور الذي لم يعد يتذكّر شيئا من حياته السابقة سوى وميس، قدور الذي فقد عقله منذ سنوات ونسيَ كلّ شيء، هاهو يتذكرني الآن، يتذكّر اسمي ويناديني، يتذكّر أنّي صديقه الغالي، صديقه الذي يقف دائما إلى جانبه ويلتمس له الأعذار إذا أخطأ، قال وقد رمى قارورة ماء كانت بيده على الأرض، ورمى معطفا كان بيده الأخرى على ظهره وقال بلهجة الرجل العاقل المتّزن:

. إنّهم يكذبون.. يخلطون السّم في العسل فلا تصدق.. إياك أن تقع في فخّهم، يريدون تزكية منك لمسعاهم فلا تزكيهم..

. من هم هؤلاء الذين يكذبون وقبل ذلك من أنا ؟ هل تعرفني ؟

. النظام يتّجه نحو مصالحة وهي في جوهرها ليست كذلك.. فلا تزك هذا المسار ولا تقبل بالعفو عن المجرمين يا هلال، إيّاك أن تنخدع..

. قدور.. أنت تسمّيني باسمي.. يا إلهي، ماذا أصابني؟ هل ما أراه وأسمعه حقيقة أم أنني أتوهّم ؟ !

. أنت في قلب المعركة وليس من حقّك أن تشكّ في قدراتك العقلية وإلاّ انهزمت في أوّل جولة قادمة.. لا لست تتوهم، أنا صديقك قدور ومن حقّك عليَّ يا صديقي الغالي أن أقدّم لك النصح..

. تريدني أن أفقد عقلي؟ أن أصير مثلك تماما هه.. أنا لا أفهم كلامك.. صحيح أنا لا أفهمه.. لكنّني سأحاول فهمه حسنا.. بالهدوء صديقي

باﻟﻬدوء !! أريد ان أسألك.. تسمح ؟

. تريد أن تسألني أم تريد أن تختبر عقلي ؟

. بل أريد أن أختبر عقلي

. تفضل يا صديقي ودون تعقيدات

. ماذا يعني لك 6 +1

. أنت تعود بنا عشرين سنة إلى الوراء، حسنا.. ستة كنّا ولكنّنا الآن اثنين فقط وثالثتنا وميس، لقد هاجر علي واستعصم عصام بالجبل، اختطف صديقنا كمال منذ سنوات وما أظنه يعود، وباع رضا نفسه للسلطان والشهوات، يكفيك هذا أم أزيد

. بل يكفي، نعم هذا كاف ليغمى عليّ..

فكّرت في تلك اللّحظات أن أتوقّف عن الكلام نهائيا وأعانقه بقوة، أن أضمّه إلى صدري وأبكي، لكنّني في الأخير وبعد صراع داخلي تمالكت وقلت:

. لقد شُفيتَ يا قدور.. عاد إليك عقلك يا قدور أليس كذلك.. الحمد لله.. الحمد لله.. كيف حدث هذا ومتى، هيّا هيّا نذهب إلى البيت احك لي.. هيّا ؟

. لم أفقد عقلي يوما صدّقني،

. لم تفقد عقلك يوما.. كيف ؟

. كان معطّلا بإرادتي

. اشرح لي أكثر

رفع قدور رأسه مجدّدا وقال:

. ما كنتم ترونه مجرّد تمثيل ليس إلاّ، كان لابد أن أقوم بدور المجنون على أحسن وجه، جنوني أنقذ حياتي..

. لم تخبرني بهذا من قبل، كيف أنقذ حياتك ؟

. نعم حياتي كانت في خطر.. هناك من كان يتربّص بنا، حتّى أنت كنت مستهدفا

. نوّرني يل صديقي من كان يتربّص بنا ؟

. اسأل وميس.. إنّها على دراية بكلّ ما حدث لي، ولجميع معارفها ومحبّيها

. وميس ؟ !! وما دخل وميس ؟ هب أنّها كذلك، ماذا تغيّر الآن ؟ لماذا قرّرت فجأة أن تتوقف عن أداء دورك.. أقصد دور المجنون؟

. الوضع يزداد تعقيدا يا هلال، إنّ ما قيل عن صديقنا عصام حقيقة وليس ادعاءات فقط، رأيته منذ أربع سنوات بأمّ عيني ورأيته أمس..

. قلت لك هيّا نذهب إلى البيت يا قدور، لا يصح أن نبقى هنا..

. دعني أولا أسرد عليك بسرعة ما رأيته من قبل وما رأيته أمس..

منذ أربع سنوات كنت هناك (أشار بإصبعه) جالسا بمحاذاة قاعة السينما، فجأة توقّفت بالقرب منّي سيّارة من نوع ميغان، خرج منها شاب لا يتجاوز عمره عشرين عاما، وبقي السائق وبجانبه شخص آخر ينتظرانه، هل تدري من ذلك الشخص؟ إنه عصام، في لحظة من لحظات انتظارهما نزل من السيّارة بسرعة ووضع في حجري ورقة ب2000 دج، ثم عاد إلى مقعده في السيّارة، طبعا أنا مجنون وهو يعرف هذا، لذا لم يعرني اهتماما كبيرا ولم

يُكَّلمني، وبدوري لم آخذ الورقة النقدية ولم أضعها في جيبي بل تركتها مرمية في حجري ولم ألق لها بالا، بعد دقائق سمعت صراخا ورأيت النّاس يركضون في كل الاتجاهات وسمعت طلقات رصاص وبسرعة فائقة عاد الشاب ركب في "الميغان" وانطلقوا، وسمعت بعد ذلك النّاس يتحدّثون عن مقتل مفتّش شرطة وشاب كان يقود درّاجة بطلقات رصاص أطلقها شاب مجهول وترك بجانبه ورقة مكتوب عليها (لأجلك وميس).. أقسم أنّني رأيته بعيني..

ما كاد ينتهي قدور من كلامه حتى صحت به:

. أش.. لا تعد إلى هذه الحكاية يا قدور، انسها بسرعة.. أنت مجنون.. أنت لا تعي ما تراه.. أنت لا تعرف عصام.. لا تعرف وميس ولم تر ذلك الشاب، دعك يا قدور من الماضي، وأخبرني بسرعة ماذا رأيت أمس.. نعم بسرعة.. بسرعة يا قدور.. الوقت يمر ولا بد أن أعود إلى البيت..

. أمس رأيت أعدادا كبيرة من جماعة عصام، ينزلون من حافلات بمحطة باب القنطرة، كانت عائلات بعضهم في انتظارهم داخل سيّارات وبعضهم انصرفوا راجلين في اتجاهات مختلفة، ورأيت أيضا عصام وذلك الشاب الذي كان معه منذ أربع سنوات في "الميغان"، رأيتهما داخل سيّارة "طيوطا" يراقبان عملية نزول الجماعة من الحافلات.. خرج عصام بعد ذلك وتوجّه نحو سيارة سوداء مصفحة كانت مركونة في الجهة المقابلة، صافح شخصا يجلس في المقعد الخلفي، أعتقد أنّه ضابط عسكري كبير،، بعد حديث قصير بينهما عاد عصام إلى "الطيوطا".

. قدور رجاء لا ترد دعوتي، اللّيلة نتعشى سويّا ونسهر إلى غاية الصبح

ونتحدّث في كلّ شيء.. أرجوك هيّا معي

اعتذر قدور بلطف وقال لي وهو يبتسم:

. ستُتّهم بالجنون يا صديقي، كيف تدعو مجنونا متّسخا مثلي إلى عشاء ساخن، هل ستأكل معي في صحن واحد.. في مائدة واحدة ؟هل ستأتي بزوجتك وأولادك ليسلِّموا عليّ ؟ أم أنّك ستضعني في ركن مظلم من الدّار لا تراني فيه زوجتك وأولادك ثمّ تأتيني بقطعة لحم وبعض الخبز والفاكهة وتطلب منّي أن أملأ بطني، تماما كما يفعل الأثرياء مع كلابهم، لا لا.. اذهب أنت، سأراك غدا أو بعده، إن شاء الله سأرتدي ثيابا لائقة ونظيفة، وسأكون في هيأة محترمة تسمح لك بارتشاف قهوة معي بكل ارتياح..

. أين أجدك ؟

. إذا لم تجدني أنت، أنا سأجدك، أعرف أين ومتى ألقاك..

. وعد

. وهل تراني أخلفت من قبل؟ عاهدتك من ربع قرن على أنّي سأكون إلى جانبك حين يجد الجد.. أراك بخير

صافحني وذهب في الاتجاه المعاكس لطريقي دون أن يقوم بأي حركة من الحركات التي كان يقوم بها ودون أن يتلفّظ بأيّة لفظة.

17

لن أنسى ذلك اليوم المشؤوم، يوم قامت الشرطة برش عائلات المختطفين بالمياه الساخنة لإرغام النّسوة على المغادرة، لم تكن لا لا فاطمة وأم أمين وزوجة راشد والأخريات يحملن في أيديهن سوى صور المختطفين من فلذات أكبادهن أو أزواجهن أو آبائهن وشعارات تطالب بالكشف عن مكان حبسهم أو حتى على مكان دفنهم، كنّ يتجمّعن ويتظاهرن كلّ يوم ثلاثاء أمام مقر الوالي، لم يتوقّعن أبدا أن يعاملن بتلك الطريقة المهينة، أه لتعاستهنّ وحرقتهنّ وألف أه لبؤسنا وهواننا،، لم نكن قادرين على فعل أيّ شيء من أجلهنّ سوى الأخذ بأيديهنّ ومرافقتهنّ إلى بيوتهنّ.. كان منظرا مأساويا جدا.. سامحيني يا لا لا فاطمة، سامحني يا كمال، إنّ شعورنا "بالحقرة" يتضاعف يوما بعد يوم، إنّنا نطعن جميعا في كبريائنا وفي رجولتنا.. ولابد للمكبوت أن ينفجر..

إن النّاس يطالبونني بالبوح أكثر، بالدّفاع عنّي وعنك أكثر، يطالبونني بالرّجوع، تذكرين يا وميس أنيّ ما خرجتُ إلاّ لأعود .

لقد خطّط الرجل الضخم لكلّ شيء، هدّدني في حياتي مرارا، وهدّدك بنسف القصر، لم يكن لديّ أمام جبروته سوى التّنحّي من طريقه بعض الوقت، ولم يكن لديه أمام عنادي ورغبتي في التخلّص منه سوى أن قام بتسوية سلمية خفيّة معك دون علمي، منحني في الظّاهر السّلامة والأحلام ولكنّه في الباطن احتفظ لنفسه بالولاية والأختام..

لقد قلت للنّاس ما كان ينبغي أن يقال، نعم لبيت دعوة المحبّين وصعدت

إلى منصة الشّعر بالمكتبة العمومية بباب القنطرة، ألقيت قصيدة عصماء، لم يكن الرّجل الضخم معنا في القاعة، لكنّه لم يكن بعيدا عنّا، كان على بعد أمتار فقط.. لقد نقل إليه أتباعه تفاصيل ما حدث وقد غضب كثيرا.. تأثر كثيرا بما سمع، تغيّرت نبرة كلامه وملامح وجهه.. ربما أدرك الآن بأنّي أنا من بَشَّرَتْ بقدومه المجلّدات والكتب القديمة، وبشّرت به الصحف السيّارة، وأنّي أنا الذي سأنافسه في الحبّ والملك، وأنّي سأنتصر عليه في الأخير، منذ ذلك الحين صار يتفادى النظر إليّ، صار يحسب لي ألف حساب..

وتماديت في البوح وفي التحدّي، صرت أمرّ بالقرب منه وأنفخ صدري جيدا، مبديا استعدادي لكل طارئ، صار لا بد أن يتخلّص أحدنا من الآخر.. إمّا أنا أو هو.

18

خمسة وعشرون عاما والرّجل الضّخم يتحسّس ويتجسّس يؤلب ويتآمر، فلمّا خاب ظنّه ومسعاه، وتكشّف أمره ورأى أنّ أتباعي صاروا بالملايين وصاروا قادرين على قلب الموازين وسحب البساط من تحت رجليه، دبّر مكيدة إخراج الشعب إلى الشارع في مسيرات ضخمة لضرب النّاس بالنّاس، فجيَّش خمسين ألفا من الموالين له لتقسيم الأمّة إلى طوائف وملل، إلى عربيّ وبربري وميزابي وترقي، لكنّ الشّعب الذي كان مهيأ للتحرّك أدرك بعبقريته المؤامرة وتفطّن للسّم فأخذ على الفور جرعته من التّرياق، فغيّر العنوان والمعنى وتمكّن من تحديد الهدف ومن رسم سبل المسعى، أحبط كل محاولات التّفرقة، وحينئذ لجأ الرجل الضخم للتّخفّي محدثا شرخا في أتباعه فلجأ بعضهم إلى الزّج بالحمقى من ضباط العسكر والأراذل من رجال المال في السجن ليوهموا النّاس أن المعركة انتهت وأن الخطر قد زال، لكنّ الخدعة لم تنطلي على الشعب، فكان لا بدّ أن يلعب أوراقه الخفية الأخرى، فاضطر إلى تحريك عملائه الحقيقيين في الداخل واستجلاب الدعم من الخارج، لقد هدد ووعد وسعى لاجتثاثي.. لكنّه خاب من قبل، وسيخيب مسعاه مرّة أخرى..

خرج الشّعب على بكرة أبيه، فرادى وجماعات في حراك سلميّ غير مسبوق، خرج الأحرار من أزقة "باب القنطرة" و"السويقة" و"القصبة" و"بن تليس" و"باردو" و"سيدي مبروك" وا"لزيادية" وكلّ الأحياء، وجاء الأنصار من "عين سمارة" و"الحامة" و"ديدوش" و"الخروب" و"المدينة الجديدة" ومن الضواحي الأخرى النائية ليهتفوا بصوت واحد (يسقط الصنم).

الكلّ راغب ومتحمّس لقطع دابر الأشرار، الشّعب يملأ شوارع وسط المدينة وساحاتها، لا قوّة بعد اليوم ولا حيلة للرّجل الضّخم أمام هذه السّيول، طوفان بشري لا يملك سدّه ولا ردّه، إنّها الواقعة، صرخ أحدهم. وصرخ آخر:"يتنحاو قاع"

بدأ الحراك يأخذ مساره ويرفع من سقف مطالبه، لم يعد يكفيه سقوط اللاّت وتهشّم العزّى، لا بدّ من كشف جميع مخابئ الرجل الضخم، لابدّ من فتح ملّف كمال وجميع المختطفين، (جيبونا ولادنا) صرخت لالا فاطمة من بين النّسوة بصوتها المبحوح وقد هدّها المرض والكبر، وكانت محاطة بزوجة راشد وأمّ أمين والأخريات، وقد اتخذن جناحا قارا وسط الحراك، وشعرن لأوّل مرة بأنّ الأمّة حملت فعلا على عاتقها قضيّة المختطفين.

في آخر لقاء بالمكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية بباب القنطرة نبّهتُ بعض أنصاري الذين سعوا إلى عقد صلح بيني وبين الرّجل الضخم، وحاولوا إقامة جسر تواصل بيننا إلى عدم الانسياق وراء خطاب الخديعة، وبينتُ لهم أنّ المعركة قد حسمت من قبل أن يولدوا وأن نهايتها قد كُتبت في اللّوح.. إنّه يأبى المغادرة، وإنّي مصمّم على اقتلاعه، إمّا أنا أو هو.

فمن شعر بأنّني رمز هويته، وبأنّني الصّراخ المدوّي في أعماقه، فليأت إلى باب القنطرة يوم يجدّ الجد، هناك على بعد أمتار من محطّة المسافرين ستكون نهاية الرجل الضخم المؤكّدة ونهاية كلّ أفّاك.

صلتي بالسّماء غير منقطعة يا وميس، وجذوري ممتدّة في الأرض، فاخبري الرجل الضّخم أنّ موعدنا نهاية السنة.. استنفري وسائل الإعلام وشبكات

التواصل الاجتماعي، أخبري العالم بأنّ ساعة الحسم قد أزفت.. ثقي بإنّني على اقتلاعه لقدير.

مضى عام ولم أتلقّ منه الردّ، ما زال أنصاري ينتظرون إشارتي للانطلاق في عملية التطهير الكبرى، لقد بدا واضحا أنّ الوهن بدأ يدبّ في مفاصل الرجل الضخم، لم يعد أنصاره قادرين على الإنفراد بصناعة المشهد واتخاذ القرار كما كانوا، صاروا فقط يلتقون خفية في"مقهى القرش" وأحيانا يتجمّعون في ساحة نصب الأموات متظلّلين بجناحي تمثال امرأة من حجر تطلّ مباشرة على الكورنيش ولابريش وتطلّ أيضا على دار الثقافة محمد العيد وهي نقطة تجمع الحراكيين يومي الجمعة والثلاثاء قبل انطلاقهم في المسيرة الكبرى.

و أنا أمرّ بالقرب من مقهى "القرش"قادما من القصبة متّجها للأسفل قاصدا مقهى المسرح في مدخل رحبة الجمال، سمعت صوت أحدهم وهو يوجّه لي الكلام بلغة فرنسية واضحة: الموت ينتظرك أيّها الشاعر الصغير(La mort t'attend petit poète)، فرددت عليه على الفور أمّا أنتم أيها الأوغاد حفدة الخنازير عملاء الرجل الضخم فينتظركم الجحيم.. سأذيقكم سقر.

ما يزال نسيم الذي أصبح رب عائلة وأبا لطفلين يحتفظ بحيويته المعهودة ونشاطه الدؤوب، لقد ظلّ منذ شهور يتنقّل من مكان إلى مكان، يعقد جلسات باسم جمعية الصخر يذكر النّاس بالرجل الضّخم وخطورته، تجده تارة بين المصلين وأخرى في مدرجات الملاعب، وأحيانا في قصور المعارض وفي الملتقيات العلمية، وتجده في دور الثقافة يحسّس الشّباب ويحمّسهم

ويؤكّد على ضرورة الانخراط في عملية التطهير الكبرى.. هلال منّا ونحن منه أيّها الأحرار، إنّه عنوان قضيتنا وحامل لواء حرّيتنا ولن نتركه وحيدا.. موعدنا يوم اللّقاء بباب القنطرة.. فلا تتأخّروا.. استعدّوا.. استعدّوا

بلغت تحركات نسيم وكلماته أذن الرجل الضخم.. صارت عباراته على ألسنة النّاس، لاسيما طلبة الجامعات، لا نوم بعد اليوم قال أحدهم وقال آخر (يا حنا يا هومه. ماراناش حابسين).

أصبح الرجل الضخم يتلعثم في الكلام كثيرا، وترتجف شفتاه عند ذكر اسمي أو اسم نسيم، لم يتقبّل أنصاره إعلان وميس رغبتها في الاحتفال بنصرها الجديد في 16 أفريل، كما لم يتقبّلوا أن أكون أنا ضيف الشرف ويكون نسيم الرجل الذي يشرف على الحفل..

سأكتبك نثرا وشعرا يا وميس.. ستكونين أغنيتي وملحمتي في العصور، كل سفراء العالم سيأتون وسيستمعون إلى نشيدنا الخالد..

لم يعد أنصاري من الفقراء فقط، صار فيهم المدير والوزير والضابط الكبير.. وفيهم أصحاب المال.. لم يعد يخيفهم شيء، لقد أعلنوا مساندتي سرّا وعلانية.

لم يحدث أن عاشت وميس حيرة كهذه من قبل.. إنّها بين عاشقين لا يريد أحدهما أن يتنحّى من طريقها أو يستسلم.. أرادت أن تكون جسرا بينهما لكنّها لم تفلح، إنّها بين نارين، نار من رمّم القصر وبنى الجسر وشرَّفَ أهلها باللّقب والجاه، ونار عاشقها الأبدي الذي كُتب اسمه في اللّوح قبل عطسة آدم.. عاشقها الذي خلقت لتشرق في عينيه وتنام في قلبه..، لقد

ورثت عن الرجل الضخم ما ورثت، فكيف تتخلّص منه ومن اسمه المثبّت في الأوراق، لقد حباها الله بالطهر، أعدّها في عالم الغيب لروح طاهرة طاهرة.. وميس ابنة الشهيد أحمد ووصيته المسجّلة.. إنّها بين نارين، فبأية نار تفضل أن تحترق؟

اقترب الموعد وبدأت طبول الحرب تدقّ.. أغلقت وميس أبواب قصرها ولم تعد تكلّم أحدا، لم تعد ترغب في استقبال الضّيوف، لقد بدأت عملية ترتيب القصر، وتجهيزه بكل ما يليق به، ليكون منارة تسحر الزوّار والسيّاح يوم الحفل، لكنّها تجنّبت كل اللّقاءات مخافة أن تُستفز أمام كاميرات العالم.

19

كل أئمة مساجد المدينة دعوا لي عقب صلاة الصبح، أمّا إمام حيّنا الشيخ سيّاف فقد دعا مطوّلا وحثّ النّاس على الحضور إلى باب القنطرة..

حين عدت إلى البيت بعد صلاة الصبح، كانت زوجتي صليحة قد رتّبت كلّ شيء، ولم يبق إلاّ تناول وجبة خفيفة والانطلاق.

كانت في انتظاري أمام باب العمارة ثلاث سيّارات، الأولى يقودها نسيم ويرافقه القاضي شوقي والشاعران عبدو وحسام، والثانية يقودها ولدي سامي ويجاوره صهيب ومن الخلف رفقاء خيمة "إبداع" محمد وصالح، أمّا الثالثة فيقودها بيبي ويجلس إلى جواره بشير وفي الخلف أكون أنا وحارسي الشخصي عطية.. وعطية هذا هو جار لي في العمارة حائز على ميداليات كثيرة في فنون القتال، اشتغل سابقا في جهاز الأمن، أمّا الآن فقد تطوّع وأصرّ أن يكون حارسي الشخصي.

قبل أن أخرج من البيت، سلّمتني صليحة صورة قديمة لها رفقة وميس . صورة لم أرها من قبل، و لا أدري لماذا أخفتها عنّي كل هذه المدة..، كما ذكّرتني بالقلم الرخامي – هدية المتنبي–، فأسرعت إلى الصندوق الشخصي وأخرجته، تأملته، تأكّدت من سلامته ثم وضعته في الجيب العلوي الخارجي في الجهة اليسرى للسترة، أمّا الصّورة فكانت في جيب القميص بجوار القلب.

قبل أن ألتحق بميدان النّزال عرّجت على الوالدين وقد بلغا من الكبر عتيّا وصارا لا يقدران على الوقوف طويلا، جلست إليهما مطيبا للخاطر طالبا

رضاهما.

كان الجو بباب القنطرة مهيبا، وكانت السّاحة مكتظة، وجوه الشباب كانت منشرحة مستبشرة، أمّا وجوه الكُهَّل والمسنين فكانت عابسة متحرزة، ما إن توقّفت السيّارات الثلاث في مدخل القنطرة ونزلتُ، حتى بدأت التكبيرات، وبدأت مكبّرات الصوت ترسل الأناشيد الثورية التي تلهب المشاعر.

كان الرجل الضخم واقفا وسط الساحة غلى صخرة مربعة الشكل مسيّجة، نافخا صدره رافعا رأسه قليلا إلى الأعلى وأتباعه حوله من كلّ جانب، وبينهم رجال يضعون نظّارات سوداء على أعينهم، لم يسبق لي أن رأيتهم من قبل أو حتّى سمعت عنهم، كانوا يحملون في أيديهم أجهزة إلكترونية لم أتبيّن ما هي، وخَشيتُ أن أكون قد وقعت في فخّ نصّبه لي كبيرهم.. يا إلهي حتى حارسي عطية اندهش لذلك وقال بنبرة متوترة: هذه خدعة يا سيدي.. لم نحسب لهؤلاء الأجانب أيّ حساب.. وأنا في هذه الحيرة الكبيرة تعالى صوت صديقي علي، صديق الدراسة وأحد الستة المبشرين بعذاب وميس، نعم إنّه هو وقد تفطّن لما تملّكني من توجّس وحيرة ونادى من بين الصفوف: أنا عليٌّ يا هلال وقد عدت أمس من كندا.. قلت لك ذات يوم -إن كنت تذكر- إنّني سأكون إلى جانبك في الوقت المناسب، ها أنذا أفي بوعدي.. إنّي أراك تنظر إلى هؤلاء الأجانب بريب كبير.. لا عليك صديقي لا عليك، أنا كفيل بهم، لديّ ما يعطل تلك الأجهزة ويجعلها غير فعّالة وعديمة الجدوى، ثم رفع جهازا كان بيده للأعلى ليراه

الناس وقال: سيفعل هذا الجهاز الصغير ما فعلته عصا موسى بأفاعي سحرة فرعون، فكبّر النّاس ثلاث أو أربع تكبيرات ثمّ فسحوا له الطريق ليقترب منّي، عانقني بقوة وهو يقول: كم اشتقت إليك صديقي هلال..

فضممته إلى صدري وقلت: إيه يا علي يا صديقي، ما زلت تتفوّق علينا بذكائك، كم أنا محتاج إليك وإلى حساباتك الدقيقة في هذا الظرف العصيب..

في هذه الأحيان طافت حولنا طوّافة عسكرية ثم حطّت غير بعيدة عنّا، نزل منها ضابطان بالزّي العسكري وأقبلا في اتجاهي، فسدّ عليهما أنصاري الطريق، لكنّني أشرت بيدي طالبا منهم السماح لهما بالمرور ففعلوا، كان أحدهما برتبة لواء والآخر برتبة عقيد

صافحني العقيد يقول: مرحبا أستاذ.

. مرحبا

نزع اللّواء قبّعته وشدّ يدي بقوة وقال: مرحبا أستاذ هلال.. هل تذكرني ؟

. آسف يا حضرة اللّواء.. آسف والله لا أذكر، هل سبق وأن التقينا ؟

. أنا اللّواء بوبكر قائد الناحية العسكرية الخامسة حاليا.. وقائد ثكنة بني مسوس سابقا.. هل تذكر ثكنة بني مسوس ؟

تذكّرته على الفور فوقفت في الاستعداد وأنا أقول: أهلا حضرات بوبكر.. نعم نعم تذكرتك.. تذكرت بني مسوس.. تذكرت مكتبك والأريكة البنية.. كيف حالك يا حضرات.. وما هذه الزيارة المفاجئة في هذا اليوم المصيري..؟

نظر إلي وقال: الحمد لله أنّك تذكّرتني، أسألك أولا هل تشعر بالأمان نحوي؟

. طبعا..

. هل تثق بي ؟

قلت دون تردد: أتَذكر جيّدا ما قلته لي منذ أكثر من ربع قرن، طبعا أثق فيك كيف لا أثق في من أعطى العهد للشهداء، وسار على الدرب.. كيف.. ؟

ابتسم وقال: لهذا جئت إليك بنفسي، أرجوك الغ هذه المنازلة اليوم، هناك مخاطر كبيرة محدقة بنا وعلينا أن نتريث، في مقابل ذلك أنا أعدك يا أستاذ هلال أنيّ سأتكفّل بالرجل الضخم شخصيا..

أشرت بيدي إلى الجماهير وقلت له:

. ماذا سيقول هؤلاء يا سيّادة اللّواء، سيقولون جبن هلال يوم المنازلة، هذا لعمري كفيل بقتل القضية في نفوس الأنصار وإلى الأبد، اطلب أي شيء آخر، آي شيء آخر وسألبي فورا، أمّا هذا الوغد فقد عمّر في هذه الأرض طويلا وآن أن يرحل.

. أتفهم هذا.. لكن لدينا دولة يا أستاذ، والدولة وضعت على عاتقها مهمة اقتلاعه، وذلك يتطلّب الهدوء، فلا تغامروا أنتم بإدخالنا في حرب أهلية لا نعرف كيف نخرج منها..

. آسف جدا، الأمر يتجاوزني الآن ويتجاوزك، لقد دقّت ساعة الصفر ولا سبيل إلى النكوص.

ـ قلت لك نحن نتكفّل به وفي أسرع وقت.. نحن لدينا خطة لاقتلاعه دون ضجيج ودون أن يتفطّن لنا العدو الخارجي المتربص..، أعطونا فرصة.

ـ لا أشكّ في نيتك الصادقة يا سيّادة اللّواء، ولا في نية الأحرار، لكن من أرسلوك ليسوا أهل ثقة.. لقد وعدوا من قبل وأخلفوا، وتبيّن في الأخير أنّهم منهم، لا تهمهم إلاّ مصالحهم الدنيئة.

حاول اللّواء مرة ثانية وثالثة، ثم لما تأكد من إصراري قال بصوت منخفض لم يسمعه إلاّ أنا وعلي وحارسي عطيّة: كان الله في عونكم.. لكن ثق أنّنا معكم مهما كانت الظّروف.. هذه كلمة شرف.

عاد الضابطان وامتطيا الطوّافة، ومباشرة بعد إقلاعها، اقتحمت الساحة أربع سيّارات من نوع 4x4 خطفت إليها الأنظار بلونها الأسود الداكن وبحجمها الضخم الفخم إضافة إلى منبّهاتها التي ترهب النفوس وتوتر الأعصاب، نزل منها حوالي تسعة أشخاص يضعون على أعينهم نظارات"ريبان" تبدو في ملامحهم علامات القسوة والاستعداد للقتال، يتقدّمهم عصام الذي قال بصوت سمعه جلّ النّاس:

ـ لست وحدك يا هلال.. كتيبة وميس تحت التصرف.. الله أكبر.. (رفع سلاحه وأطلق النّار في الهواء.)

حدثت في هذه الأثناء شوشرة في المربع الذي يتواجد فيه الرجل الضخم، خاصة في الجهة السفلى من الساحة، فاضطررت لتغيير موقعي بسرعة امتثالا لنصيحة عطية وطلبت من عصام وجماعته أن يحموا ظهري أثناء انتقالي إلى جهة أخرى أكثر أمانا..

تبيّن بعد ذلك أنّ قدور هو من أحدث كل تلك الفوضى، حيث تقدّم من بعض المحيطين بالرجل الضخم وراح يبصق في الهواء ثم مسك بيد صديقنا رضا الذي كان في الصف الثاني خلف الرجل الضخم وجذبه بقوة وهو يصرخ به يا خائن يا خائن.. فاضطر حرّاس الرجل الضخم إلى إبعاده عن مربعهم مكتفين بذلك مصدّقين ما قاله لهم رضا بأنّه مجنون ولا داعي لتعنيفه أو رميه بالرصاص.

اقتحم قدور مربعنا الكبير وشقّ الصّفوف غير مبال ببعض النّداءات المطالبة بإخراجه، توجّه مباشرة نحو نسيم وطلب منه مكبّر الصوت فرفض نسيم الذي يعرف قدور ويعرف أنّه فاقد لعقله حتى وإن حلّق ذقنه هذه المرة وكانت ثيابه شبه نظيفة وبدا في هيئة رجل محترم، لكن قدور ظلّ يلح عليه إلى أن تدخلت شخصيا وطلبت منه تسليمه مكبّر الصوت..

قال قدور:

يا أيها النّاس، لقد اكتملت دورة الباطل في هذه البلاد وآن للشمس أن تشرق من جديد.. لقد رأى أستاذنا المتنبي أنّ هلالا سيكبر في كنف الفجيعة والصراع، وأنّه سيسقط مرّات ومرّات لكنّه سيقوم بعد كل سقوط بعزيمة أكبر ويواصل المشوار..

وهنا تعالت التكبيرات والتعليقات واختلف النّاس في شأن قدور..

قال أحدهم: لا أصدق أهذا قدور الذي يبيت في العراء ؟ !!

وقال عصام لأحد الشباب المرافقين له: هل تذكر صديقي المجنون الذي حدّثتك عنه والذي سلّمته يوم عملية الزرزور ورقة 2000دج ولم يشأ أن

يأخذها، هل تذكر.. هو هذا.. أقسم لك أنّه هو

وقال ثالث: أوبا بم.. أوبا بم.. وميس.. لم يكن يعرف قدور إلاّ هذه الكلمات يا سبحان الله ماذا أسمع من أطلق لسانه..

وواصل قدور كلامه وقد سكت الجميع:

"أيّها النّاس لقد كان لأستاذنا المتنبي قلم رخامي جميل، ورثه عن أبيه الذي ورثه عن جدّه الأكبر، لكن أستاذنا الذي لم يُرزق بولد، لم يعثر في التلاميذ من يستحق شرف الاحتفاظ به سوى هلال فأهداه إياه.. كان يعلم أنّ قوة هلال في بيانه لا في بنيانه.. أمّا نحن أصدقاؤه فقد لمسنا فيه الشهامة والأمانة منذ الصغر، ولمسنا فيه الحكمة والعدل ورأينا فيه الرجل الزعيم.

ثم التفت إليَّ وقال:

ـ أين القلم الرخامي يا أستاذ هلال، أين القلم ؟

تلمست القلم أولا بيدي ثم أخرجته ورفعته كي يراه

فكبّر قدور وقال: هذا يوم الشهادة يا صديقي، آن أن تكتب على هذه الصخرة الملساء تاريخنا وتاريخ وميس، اكتب به وميس الأمس وميس اليوم.. اكتب على الصخر العتيق اسمك واسم البلد..

فتعالت الصيحات مرة أخرى بحماسة منقطعة النظير، وعاد قدور إلى خطابه بعد أن أشار بيده على النّاس بالسكوت قائلا:

أيّها النّاس أعرف أنّ بعضكم يتعجّب الآن ويسأل هل فعلا أنا قدور؟ دعوكم من كلّ هذا واسمعوني.. " لقد قطعت على نفسي عهدا في أوّل العمر، أن أكون حيثما يكون هلال، أن أنصره بالجهد والمال، وبكلّ ما

أملك، وقد تكشّف لي منذ البداية أمر أعدائه، إنّهم يتربصون به الدوائر، فلا تتركوه وحيدا وقد خرج من أجلكم.. هلال كبرياؤكم المقموع، يومكم الجديد.. مستقبلكم ومستقبل أولادكم فكونوا في صفّه، انصروه.. وصرخ الشعب دفعة واحدة (نحن معه نحن معه).

في هذه الأحيان صرخ قدور في النّاس: أفسحوا الطريق.. أفسحوا الطريق (مشيرا بيده إلى وميس)

أدرت رأسي فرأيت وميس وصليحة تسيران بين الجموع تتقدّمان نحوي، فكبّر عصام ورفع سلاحه للأعلى، وكذلك فعلت كتيبته وأطلقوا دفعة واحدة وابلا من الرصاص في الهواء.

كان مشهدا مثيرا.. يبعث على الفخر والرهبة في آن، نظرت إليهما ثم إلى عصام وقد عانقه عليّ بحرارة أمام أعين الأنصار، ثم تفقدت الصّورة المخبّأة بجوار القلب، أخرجتها وتأملتها وتأملتهما مليا، كم كانتا جميلتين في الصورة وكم هما جميلتان في الواقع.. ثم رفعت القلم الرخامي عاليا في السماء، فإذا بطائر أسود لا هو بالنسر ولا هو بالغراب يحلّق غير بعيد عنّي، ثم اقترب منّي بسرعة فائقة وحاول أن يختطف منّي القلم فتصدى له عليّ بجهازه، فابتعد مذعورا مصدرا صوتا مزعجا، دار دورتين في الساحة قريبا من الرؤوس ثم حلّق بعيدا بعيدا حتى اختفى. حدّقت جيدا في وميس، وبدا لي أنّها ترتعش.. أتراه الخفاش الذي أرعبك يا أميرة في تلك الليلة بالمستشفى.. أتراه هو؟ فجأة برزت للعيان سحابة داكنة في السماء، اقتربت شيئا فشيئا منّا إلى أن صارت فوقنا فعمّ الظلام.. بعد بضع ثوان انقشعت السحابة

وعاد الضياء وانتشر في الأرجاء، فاشرأبت أعناق النّاس إلى قلمي الذي لمع لمعانا غير عادي مشكلا حرف (س) تحوّل السين بعد ذلك إلى (ق) ثم إلى نجمة مضيئة، فصرخ قدور: انظروا.. انظروا إلى الصخرة.. أنظروا.. فإذا الصخرة غير التي كنّا نرى، تغيّر شكلها وصارت ملساء ليس بها خدوش، ألتفتنا على الفور بأعيننا ناحية اليمين وحيث الضجيج فلم يتبيّن لنا الرجل الضخم.. لقد اختفى هو وأنصاره، وكأن الأرض فجأة ابتلعتهم.. ونحن في غمرة ذلك الذهول الذي أصابنا جميعا واصل قدور صراخه: أين اختفيت أيّها الوغد أين حرّاسك؟ أين أنتم يا أوغاد؟

ونادى نسيم في الساحة عبر مكبّر الصّوت: أغلقوا أبواب المدينة السبعة.. أغلقوا الأبواب.. لا تتركوهم يفرّون.. أغلقوا الأبواب.. وسدّوا مداخل الجسور الثمانية.

رفعت قلمي مجدّدا.. نظرت إليه ثم نفخت في ثقب صغير في أعلاه فتطايرت منه كرات هوائية شفافة، ارتفعت في السماء ثم بدأت تكبر شيئا فشيئا وتبتعد إلى أن اختلطت بالسحابة التي صارت بيضاء كالقطن فارتسمت داخل السحابة صورة أبي وهو يبتسم، انسلّ بعدها وراح يطير، ثم استحالت يداه فجأة جناحين بصورة امرأتين جميلتين وكان سرب حمام يحيط بهم من كل جانب، فناديت بملء الحنجرة: لا تبتعد كثيرا يا أبي . لا تبتعد.. حلمك يتحقق الآن.. لقد صدّقت السماء الرؤيا.. لا تبتعد، ولكن السّماء ابتلعته، وابتلعت معه الجميلتين.. ورأيتني بعد ذلك أقتفي أثره وأطير.. أجوب المدينة طولا وعرضا بحثا عنهم، ثم استقر بي الحال على

صخرة ملساء قبالة المشفى الكبير في أعالي باب القنطرة غير بعيد عن قعر أشقار.

وما أفقت إلاّ على زغاريد نسوة المدينة وتهنئة النّاس لي، ولأصدقائي قدور وعصام وعلي..

ثم جاء من يخبرني بأن شيخا يجلس في كرسي متحرك يريد أن يهنئني فهرولت نحوه ويا لها من مفاجأة.. إنه أستاذي

يا ألله أستاذي.. المتنبي !!! أستاذي !!

قبّلته على خدّيه وعلى رأسه وعانقته بحرارة ثم التفت إلى النّاس وقلت:

هذا أستاذي.. هذا من أهداني القلم الرخامي، أخبروا علي وعصام وقدور

قال وقد انسابت على خدّه دموع كان يخفيها: نعمَ الابن أنت يا هلال

. هل تذكر "علي" و"عصام" و"قدور" هل تذكرهم يا أستاذ، سيأتون حالا، وهل تذكر "وميس" هاهي "وميس".. ها هي رفقة زوجتي "صليحة".. وميس.. وميس تعالي.

عرفته "وميس" من أوّل نظرة، بادرته بالسّلام وببسمة خفيفة ثم غطّت وجهها بيديها وبدأت تبكي بكاء صامتا..

نظر إلى السماء وقد بدا عليه التأثر ثم نظر إليَّ جيدا.. مسح دمعة انسابت على خدّه ثم أمسك بيدي بلطف وقال:

وأين "رضا" و"كمال"؟ أم أنّهما سيغيبان عن الدّرس ؟

لم تتمالك "وميس" وهي تلتقط السؤال، فأجهشت بالبكاء، أشاحت بوجهها، وأرسلت كقطة مواء، فأسرعت إليها "صليحة" واحتضنتها، ثم

ضمّتها إلى صدرها. وجاء "عصام" وعليّ وقدور مهرولين، قبّلوا المتنبّي واحتضنوه وجلسوا على أركبهم وظلّوا ملتفّين حوله..

وقال عليّ للمتنبي: لم نرك منذ ذلك الحين يا أستاذ، وكأن الأرض ابتلعتك.

فردّ المتنبي: أجبرت على المغادرة يا "عليّ"، خيّرت بين الموت أو المنفى، فاخترت الثانية.

. وهل وجدت الراحة والأمان في منفاك ؟

. أبدا.. ولكن من رأى الموت رضي بالحمّى

. لكن لماذا؟ بماذا اتهموك؟

. تهمتي كانت ثقيلة ولولا أنّي كنت من المجاهدين في لما تركوني أغادر

نظر إليه "عليّ" وقد استعصى عليه فهم المغزى، فلم ينبس ببنت شفة.

فتدخّل "قدور": لسنا قادرين على فهم الألغاز وقد جاوزنا الخمسين، ما هي هذه التهمة الثقيلة؟

ردّ المتنبّي: تهمتي الأولى والأخيرة هي أنتم، وأنا فخور بكم

. نحن تهمتك؟!!! ماذا يعني؟

. لقد راسلت هلال من قبل وحلّفته بالله أن لا يذيع سرّا، وكان فعلا محلّ ثقة، أمّا الآن فبإمكانه أن يخبركم بكل كبيرة وصغيرة.

. نحب أن نعرف منك أولا... من تظنه وراء متاعبك وتهجيرك ؟

. وهل هناك غيره، البلاء كلّ البلاء من الرجل الضخم

التفت المتنبّي إليَّ مجدّدا وقال: لم تجبني عن سؤالي يا هلال، أين بقيّة الفوج؟

. تماما كما كنت تنبّأت يا أستاذ، لقد مضى كمال إلى حتفه، ولا أظنه

سيلتحق بزملائه في القسم، أمّا رضا فإلى جبنه قد ركن..
قال عصام مقاطعا: قلها بوضوح يا هلال، رضا خاننا لقد اختار صفّ العصابة يا أستاذ.
فتدخّل المتنبي كما كان يفعل في القسم ورفع يده فسكتنا:
. لقد أزيح الستار وظهر عدوكم جليّا فحاربوه، لا تتفرّقوا فتذهب ريحكم، سيروا صفّا واحدا في الحراك، فلا فرق بين عربي وقبائلي ولا بين شاوي وميزابي إلا بالانتماء للسماء ولهذه الأرض، مهمتكم لم تكتمل بعد يا هلال، الرجل الضخم لم يندثر نهائيا، وكان عليكم أن لا تتركوه يفرّ..
وتعالت الأصوات في المدينة: (الشعب.. الجيش–خاوة.. خاوة)
وصاح فاتح عبر مكبر الصوت من وسط الحراك: (طالبين طالبين طالبين الحرية)
وجاء اللّواء بوبكر يزفّ البشرى: لقد لقي الرجل الضخم حتفه في أسفل وادي الرمال، أمّا أتباعه فقد تلاشوا ولم نجد لهم أثرا.
وأمّا أنت يا هلال فقد نجوت من الموت بأعجوبة..،
لقد أحيط بك من كلّ جانب، ولولا أن تداركك نعمة من ربك لهلكت
بعد أسبوع، انتشر خبر وفاة هلال في ظروف غامضة، منهم من قال بسكتة قلبية، ومنهم من قال قتله فيروس اسمه كورونا انتقل إليه عن طريق صديقه علي القادم من كندا.